

أصول في التفسير

ويليه

السراج المنير

على

أصول في التفسير

حقوق الطبع محفوظة

للمؤلف

أصول في التفسير

للشيخ العلامة: محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

ويليه

السراج المنير

على

أصول في التفسير

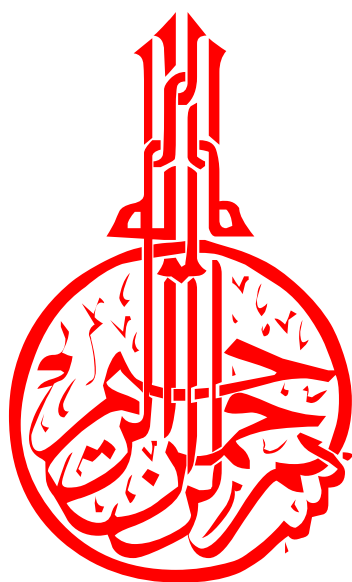
لأبي عامر

عبد الله بن أحمد الحكي

تقديم فضيلة العلامة

أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري

حفظه الله تعالى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ العلامة

أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فهذا شرح طيب مفيد على رسالة: "أصول التفسير"، لفضيلة العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمته الله.

وهذا الشرح أفاده أخونا الداعي إلى الله المفضل عبد الله بن أحمد الحكمي حفظه الله، فجزاه الله خيرا ونفع به.

كتبه

يحيى بن علي الحجوري

١١ / ١ / ١٤٤٠ هـ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فقد يسر الله لي بتعليقات على: (أصول في التفسير)، للشيخ العثيمين رحمته الله ،
أثناء تدريسي للكتاب في جامع الاستقامة بالحديدة في شهر الله المحرم لعام
(١٤٣٠هـ)، ثم تداولها بعض طلبة العلم في ملزمة.

وفي هذه الأيام وأنا في البلاد الحضرية رغب لي بعض الأخوة طباعتها، لما
عزمت على تدريسها، فأعدت النظر فيها والعناية بها.

فأسأل الله الكريم أن يتقبله مني وأن ينفع به كما نفع بأصله وأن يجعله ذخراً
لي يوم الدين، وأن ينفع به كاتبه ومتعلمه في الدارين، وأن يغفر لي ولوالدي
ولمشايخي ولجميع المسلمين، اللهم آمين.

كتبه :

أبو عامر عبد الله بن أحمد الحكيمي

كان الفراغ من مراجعتها وكتابة المقدمة في عصر يوم الأربعاء

١٦ / شعبان / ١٤٣٩ هـ

مسجد عمر بن الخطاب - قصيعة - حضرموت الساحل

التعريف بعلم أصول وقواعد التفسير

تعريف هذا العلم الشريف: هذا العلم يعرف باعتبارين:

الأول: باعتبار مفرداته.

الثاني: باعتبار كونه لقباً لهذا العلم الشريف.

أولاً: تعريف هذا العلم باعتبار مفرداته:

التفسير: مأخوذ من الفسر وهو بمعنى الإظهار والكشف والإبانة.

تقول: فسر الكلام أي أبان معناه وأظهره، كما يقال فسر عن ذراعه: أي

كشف عنها.

فالتفسير: هو الإظهار والكشف والإبانة عن الشيء^(١).

واصطلاحاً: هو بيان معاني القرآن الكريم.

ثانياً: تعريف هذا العلم باعتبار كونه لقباً لهذا العلم الشريف:

علم أصول وقواعد التفسير:

هو العلم بأحكام كلية يتوصل بها إلى استنباط معاني القرآن العظيم ومعرفة

كيفية الاستفادة منها^(٢).

(١) راجع "الكليات" لأبي البقاء، و"الصحاح" للجوهري، و"تهذيب اللغة" للأزهري.

(٢) راجع كتاب "قواعد التفسير" لخالد السبت: (١ / ٣٠).

أهمية معرفة الأصول والقواعد عموماً، وقواعد التفسير خصوصاً:

لما تشعبت العلوم بحيث أصبح من الصعوبة بمكان الإحاطة بجزئياتها، عمد العلماء إلى استقراء وإبراز الأصول الجامعة والقواعد الكلية التي ترجع إليها تلك الجزئيات تيسيراً للعلم، وإعانةً على حفظ ما تناثر من جزئياته، مع اختصار لكثير من الجهد والوقت، فلا يمكن للراغب في فن من الفنون أن يحصل فيه تحصيلاً معتبراً إلا بمعرفة قواعده والأصول التي تبنى عليها مسأله.

وهاك بعض كلام أهل العلم في بيان أهمية ذلك:

قال شيخ الإسلام رحمته الله: لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم. اهـ^(١)

قال الزركشي رحمته الله: أما بعد، فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هي أوعى لحفظها، وأدعى لضبطها، وهي إحدى حكم العدد التي وضع لأجلها، والحكيم إذا أراد التعليم لا بد أن يجمع بين بيانين: إجمالي يتشوق إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه. اهـ^(٢)

قال الإمام السعدي رحمته الله مادحاً كتب شيخ الإسلام وبها تميزت عن غيرها:

(١) راجع: "مجموع الفتاوى" (١٩ / ٢٠٣).

(٢) راجع: "المنثور في القواعد" للزركشي (١ / ٦٥ - ٦٦).

و من أعظم ما فاقت به غيرها وأهمه وتفردت على سواها أن مؤلفها **رَحِمَهُ اللهُ** يعتني غاية الاعتناء بالقواعد الكلية، والأصول الجامعة، والضوابط المحيطة في كل فن من الفنون التي تكلم عليها. ومعلوم أن الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبيان، والأصول للأشجار لا ثبات لها إلا بها والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى... اهـ^(١)

قال ابن عثيمين **رَحِمَهُ اللهُ**: من حُرِّمَ الأصول حُرِّمَ الوصول. اهـ^(٢)

موضوع قواعد التفسير:

موضوع هذا العلم: هو القرآن الكريم، أو بعبارة أدق هو: تفسير القرآن الكريم، ومعرفة معانيه.

غايته :

فهم معاني القرآن الكريم.

(١) راجع: "أصول التفسير" للعثيمين، "طريق الوصول" للسعدي (ص: ٤).

(٢) راجع: "أصول التفسير" للعثيمين فيما سيأتي.

بيان فضيلة علم التفسير:

اعلم أخي - وفقني الله وإياك إلى كل خير أن شرف هذا العلم يتلخص في ثلاثة أمور:

من جهة موضوعه: إذ موضوعه كلام الله تعالى الذي هو أجل الكتب وأعظمها وأشرفها.

من جهة مقصوده وغايته: وهي فهم معاني كتاب الله، والعمل به؛ حتى يتوصل بذلك إلى سعادة الدنيا والآخرة.

من جهة عظم الحاجة إليه: إذ أن كل فلاح ديني ودنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى، إذ هو أصلها. (١)

وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل تعلم القرآن وتعليمه، منها:

حديث عثمان **E** قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»،

وفي رواية: «أَفْضَلُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». [رواه البخاري برقم (٥٠٢٧)]

وقد اعتنى السلف من الصحابة والتابعين بتعلم القرآن وفهم معانيه، حتى أنهم ما كانوا يجاوزون بعض الآيات حتى يتعلموها ويعملوا بها.

قال ابن جرير رحمته الله: اعلّموا عباد الله رحمكم الله أن أحق ما صرفت إلى علمه العناية وبلغت في معرفته الغاية ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل

(١) راجع جميع ما تقدم في "قواعد التفسير" لخالد السبت (١ / ٢٢ - ٣٩).

الرشاد هدى وإن أجمع ذلك لباغيه، كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مزية فيه... اهـ (١)

وقال القرطبي رحمته الله وبعد فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض؛ رأيت أن أشتغل به مدى عمري واستفرغ فيه منيتي... اهـ (٢)

قال ابن كثير رحمته الله : ذكر البخاري رحمته الله كتاب (فضائل القرآن) بعد

(كتاب التفسير)؛ لأن التفسير أهم فلهذا بدأ به.... اهـ (٣)

قال الذهبي رحمته الله : قل من يعتني اليوم بالتفسير. اهـ (٤)

وقال بدر الدين الحلبي رحمته الله : طلاب العلوم الشرعية أقل الناس عناية بالتفسير، وأزهدهم فيه، فالطالب الذي يصرف عشر سنوات من عمره في تعلم النحو من حواشي المتأخرين، أو بالحري يمضي عشر سنوات في قيل وقال، ويضن على كتاب الله قانون دينه، ومبدأ سعادة البشر في النشاطين سنة يصرفها في قراءة

(١) راجع "تفسير ابن جرير" (١ / ٧).

(٢) راجع "تفسير القرطبي" (١ / ٢٩).

(٣) راجع "فضائل القرآن" لابن كثير.

(٤) راجع "بيان زغل العلم والطلب" (ص: ١٠٩).

تفسير من تفاسيره اللطيفة الموثوق بها والمعلومة درجة مؤلفيها وطبقتهم بين العلماء. اهـ^(١)



(١) راجع "تاريخ التفسير" (ص: ١٢٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ العثيمين رحمه الله

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً.

أما بعد:

فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عوناً له على فهمه وتخرجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنياً على أسس قوية ودعائم راسخة، وقد قيل: من حُرِمَ الأصول حرم الوصول. (١)

ومن أجل فنون العلم، بل هو أجلها وأشرفها، علم التفسير (٢) الذي هو تبين معاني كلام الله عز وجل وقد وضع أهل العلم له أصولاً، كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً، ولعلم الفقه أصولاً.

(١) ذكرها العلامة السعدي رحمه الله فقال: ومن ضيع الأصول حرم الوصول. اهـ [راجع بهجة قلوب الأبرار (ص: ٢٧)].

(٢) بإجماع أهل العلم، راجع مقدمة التفسير لشيخ الإسلام مع حاشية ابن قاسم: (ص: ١٤٣).

وقد كنت كتبت من هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أفرد لها رسالة، ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبت به إلى ذلك، وأسأل الله تعالى أن ينفع بها. ويتلخص ذلك فيما يأتي:

القرآن الكريم:

- ١- متى نزل القرآن على النبي ﷺ، ومن نزل به عليه من الملائكة؟
- ٢- أول ما نزل من القرآن.
- ٣- نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.
- ٤- القرآن مكي ومدني، وبيان الحكمة من نزوله مفرداً. وترتيب القرآن.
- ٥- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي ﷺ.
- ٦- جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان.

التفسير:

- ١- معنى التفسير لغة واصطلاحاً، وبيان حكمه، والغرض منه.
 - ٢- الواجب على المسلم في تفسير القرآن.
 - ٣- المرجع في التفسير إلى ما يأتي:
- (أ) كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن.
- (ب) سنة الرسول ﷺ؛ لأنه مبلّغ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

(ج) كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

(د) كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم.

(هـ) ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، فإن اختلف الشرعي واللغوي، أخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.

٤- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٥- ترجمة القرآن: تعريفها - أنواعها - حكم كل نوع.

- خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير: ثلاث للصحابة واثنان للتابعين.

- أقسام القرآن من حيث الأحكام والتشابه.

- موقف الراسخين في العلم، والزائعين من المتشابه.

- التشابه: حقيقي ونسبي.

- الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

- موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك.

- القَسَم: تعريفه - أدواته - فائدته.

- القصص: تعريفها، الغرض منها، الحكمة من تكرارها، واختلافها في الطول

والقصر والأسلوب.

- الإسرائيليات التي أقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.

- الضمير: تعريفه - مرجعه - الإظهار في موضع الإضمار وفائدته - الالتفات وفائدته - ضمير الفصل وفائدته. (١)
-

(١) قال الشيخ رحمه الله في الشرح: ثم اعلّموا أن هذه الرسالة أصول في التفسير، وليست أصول التفسير كلها. اهـ

القرآن الكريم

القرآن في اللغة: مصدر قرأ بمعنى تلا، أو بمعنى جمع، تقول قرأ قرأً وقرآنًا، كما تقول: غفر غَفْرًا وَغَفْرَانًا، فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول؛ أي بمعنى متلو، وعلى المعنى الثاني: (جَمَعَ) يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل؛ أي بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام.

والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. ^(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ

(١) تعريف القرآن الكريم:

تعريفه، لغةً: اختلف في القرآن من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدرًا أو وصفًا، وسوف نقتصر على قولين هي الأرجح، والله أعلم.

- **الأول:** قال جماعة: القرآن مصدر (قرأ) بمعنى (تلا)، ثم نُقل من هذا المعنى المصدري وأصبح علمًا على المنزل على نبينا محمد ﷺ.

- **الثاني:** قال الزجاج رحمه الله: إنه مشتق من (القرء) بمعنى الجمع، يُقال في اللغة: قرأت الماء في الحوض أي جمعته، ثم سمي به الكلام المنزل على النبي ﷺ لجمع السور والآيات فيه أو القصص والأوامر والنواهي، أو لجمعه ثمرات الكتب السابقة.

القرآن الكريم شرعاً: هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. [راجع "المدخل لدراسة القرآن الكريم" لأبي شعبة (ص: ١٩)].

وشرح هذا التعريف: قوله: (هو كلام الله): دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع السلف فلا يلتفت بعد ذلك إلى كلام أهل التعطيل. **قوله:** (المنزل على نبيه ﷺ): خرج ما أنزل

القرآن تَنْزِيلاً ﴿[الإنسان: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقد حمى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفل عز وجل بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولذلك مضت القرون الكثيرة، ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغير فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يبدل، إلا هتك الله ستره، وفضح أمره. (١)

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا

على من سبقه من الأنبياء والكتب.

قوله: (المعجز بلفظه): خرج بذلك الأحاديث القدسية. **قوله:** (المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس): وقد أجمع على ذلك المسلمون، إلا من شذ من الرافضة فادَّعَوْا أن القرآن فيه نقص، وأنه حذف منه أشياء.

(١) قال العلامة الألوسي رحمته الله: أي من كل ما يقدح فيه كالتحريف والزيادة والنقصان وغير ذلك، ولم يحفظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك، بل استحفظها جل وعلا الربانيين والأخبار فوقع فيها ما وقع، وتولى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أولاً وآخرأ. اهـ [راجع "تفسير الألوسي" عند آية (٩) من سورة الحجر].

- وحفظ القرآن بأمور:

- **الأول:** حفظه في حال إنزاله من استراق كل شيطان رجيم.

- **الثاني:** حفظه بعد إنزاله أودعه الله في قلب رسول الله صلوات الله عليه وآله، ثم في قلوب أمته. [راجع تفسير السعدي عند الآية].

- **الثالث:** حفظه بجمعه وكتابته في عهد أبي بكر وعثمان. كما سيأتي.

مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» [الحجر: ٨٧] (١)، ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [ق: ١]. وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَّا الَّذِينَ الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ

(١) قال العلامة الشنقيطي رحمته الله: فاعلم أن النبي صلوات الله عليه وآله وسلم بين في الحديث الصحيح: أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة: هو فاتحة الكتاب. قال البخاري رحمته الله في "صحيحه" في تفسير هذه الآية الكريمة: عن أبي سعيد بن الملق رحمته الله، قال: مر بي النبي صلوات الله عليه وآله وسلم وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِه حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتي بي؟» فقلت: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، ثم قال: أَلَا أَعْلَمُكُمْ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ صلوات الله عليه وآله وسلم لِيَخْرُجَ، فَذَكَرْتُهُ، فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ».

فهذا نص صحيح من النبي صلوات الله عليه وآله وسلم: أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال: إنها السبع الطوال، غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه صلوات الله عليه وآله وسلم وقيل لها: «مثنائي»؛ لأنها تثنى قراءتها في الصلاة. وقيل لها: «سبع»؛ لأنها سبع آيات. وقيل لها: «القرآن العظيم»؛ لأنها هي أعظم سورة؛ كما ثبت عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح المذكور آنفاً. اهـ [باختصار راجع "أضواء البيان" (٢/ ٣١٤)].

يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿التوبة: ١٢٤-١٢٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴿الأنعام: الآية ١٩﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿الفرقان: ٥٢﴾. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿النحل: الآية: ٨٩﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴿المائدة: الآية ٤٨﴾. (١)

(١) **فائدة:** ذكر أهل العلم أسماء كثيرة للقرآن، أوصلها بعضهم إلى خمسة وخمسين اسماً. راجعها في "البرهان" للزركشي و"الإتقان" للسيوطي. والصحيح أن أكثر مذكروه أوصافاً للقرآن وليست أسماءً له وأشهر هذه الأسماء خمسة:

القرآن الكريم،

الفرقان: لأنه فرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿الفرقان: ١﴾.

الكتاب: بمعنى مكتوب، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة، ومكتوب في المصاحف التي بأيدينا، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿الكهف: ١﴾.

التنزيل: مصدر أريد به المنزل، لنزوله من عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿[فصلت: ٤١-٤٢].

الذكر: سمي به القرآن لاشتغاله على المواعظ والزواجر، وقيل لاشتغاله على أخبار الأنبياء والأمم الماضية قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿[الحجر: ٩].

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بعث بها محمد ﷺ إلى كافة الناس، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١-٢]. (١)

(١) فائدة: بعض خصائص القرآن الكريم وصفاته:

- أنه خاتم الكتب وأشرفها، وأنه ناسخ لما قبله من الكتب السماوية.
- قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]: جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأكملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهداً وحاكماً وأميناً عليها كلها... اهـ
- أن الله تكفل بحفظه بنفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
- أنه آية وبرهان ومعجزة أوتيتها محمد ﷺ: فتحدى الله الكفار وهم أفصح الناس أن يأتوا بمثله أو بأقل من ذلك فعجزوا. قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الدليل على هذا من الواقع أن القرآن نزل في قوم هم أفصح العرب وبلغه هؤلاء القوم ومع ذلك عجزوا عن معارضته. وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا: قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. وتحداهم بعشر سور فعجزوا وتحداهم بسورة فعجزوا وتحداهم بآية فعجزوا، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]. اهـ

- أنه نزل مفرقاً على حسب الوقائع: ولم ينزل جملة واحدة، كما كانت تنزل الكتب السابقة. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضاً كما قرره القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظاً﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقاتل تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: الآية ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. (١)

—
- أنه مصدر التشريع للمسلمين هو سنة النبي ﷺ كما ذكر الشيخ رحمه الله.
(١) قال الشوكاني رحمه الله: اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه». اهـ
وقال: والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام. اهـ [راجع "إرشاد الفحول" (١/ ٩٦٩٧)].
قالت اللجنة الدائمة: ومن أنكر حجية السنة فهو كافر. [راجع "فتاوى اللجنة الدائمة" (٣/ ١٩١)].

تنبيه: الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين كلها تسمى قرآناً.
روى البخاري: (٣٤١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القرآن»، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قد تسمى الكتب القديمة قرآناً كما قال النبي ﷺ: «خفف على داود القرآن». اهـ [راجع "الإيمان الأوسط" لشيخ الإسلام (ص: ٥١)].

(نزول القرآن)

نزل القرآن أول ما نزل على الرسول ﷺ في ليلة القدر في رمضان، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٣-٤]، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].^(١)

(١) معنى النزول: هو النزول من الأعلى إلى الأسفل.

قال ابن القيم رحمه الله: وَالتَّزْوِيلُ الْمُعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى أَسْفَلٍ. اهـ [راجع "إعلام الموقعين" (٢/ ٢١٦)، و"تفسير السمعاني" (٣/ ٧٥)، و"الكليات"].

متى نزل القرآن الكريم؟

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]. **فدلت هذه الأدلة:** أنه نزل في شهر رمضان، وفي ليلة القدر منه، وهي الليلة التي وصفها الله تعالى في سورة الدخان أنها مباركة.

قال القرطبي في "تفسيره" رحمه الله: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] نَصٌّ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ نُزِّلَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَهُوَ يَبِينُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ حَمْدٌ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: ١-٣] يَعْني: لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَلَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي رَمَضَانَ لَا فِي غَيْرِهِ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ مِنَ اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُ بِهِ نَجْمًا نَجْمًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالْأَسْبَابِ، وَذَلِكَ فِي عَشْرِينَ سَنَةً. اهـ

• أين كان القرآن قبل النزول؟

كان في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، و هذا اللوح كتب الله فيه كل شيء، لا يعلم صفته وسعته إلا الله جل وعلا. وقد يسر الله لنا بجمع رسالة فيما يتعلق باللوحة المحفوظ وما يجب اعتقاده فيه.

• كيفية نزول القرآن من اللوح المحفوظ؟

اختلف في ذلك على ثلاثة أقوال:

أشهرها: أنه نزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً على حسب الوقائع، وهذا قول جمهور السلف، بل نقل القرطبي عدم الخلاف فيه. كما تقدم.

قال ابن حجر رحمته الله: وهو الصحيح المعتمد. اهـ. [فتح الباري" حديث رقم: (٤٦٧٨)].

قال السيوطي رحمته الله: وهو الأصح والأشهر. اهـ. [الإتقان" للسيوطي: (١ / ١١٦)].

وقد صح عن ابن عباس رحمته الله بأنه قال: (نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة فجعل في بيت العزة، وجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم).

قال الحافظ في "فتح الباري" عند حديث رقم (٤٦٧٨): إسناده صحيح، وهو في "مصنف ابن أبي شيبة" (٣٠١٩٠)، و النسائي في "الكبرى" (٧٩٣٧)، والحاكم (٢٨٨١) وصححه الذهبي، وقد روي عن ابن عباس رحمته الله من وجوه كثيرة.

قال الشيخ الألباني رحمته الله: فهذا حديث موقوف، ولم نجده مرفوعاً إطلاقاً، جاء بالسند الصحيح عن ابن عباس رحمته الله موقوفاً عليه، فقال العلماء: إن هذا الحديث في حكم المرفوع؛ لأنه يتحدث عن أمر غيبي، وهو أنه يقول: نزل كلام الله القرآن الكريم جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وهذا لا يستطيع العقل البشري أن يتحدث به إلا من إنسان لا يبالي ما يخرج من فيه، أما ابن عباس رحمته الله وهو صحابي جليل ابن صحابي ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يخطر في بال إنسان أن يتحدث رجماً بالغيب. فإذاً: هذا حديث موقوف في حكم

المرفوع. اهـ ["موسوعة الألباني في العقيدة" (٧٩٢ / ٥)]، ومن قال إن هذا الأثر له حكم الرفع الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان".

فيتلخص من ذلك شأن القرآن في ثلاثة أمور:

الأول: كتابته في اللوح المحفوظ.

الثاني: نزوله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان.

الثالث: تكلم الله به، وسمع جبريل للقرآن من الله تعالى، ثم نزوله به إلى النبي ﷺ منجماً حسب الوقائع، في ثلاث وعشرين سنة.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَنْزَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُنْجِماً مُفْرَقاً بِحَسَبِ الْحَوَادِثِ، وَلَا يُنَافِي أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ قَبْلَ نُزُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مُحْفُوظٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾، فَإِنَّ كَوْنَهُ مَكْتُوباً فِي اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ. وَفِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ جِبْرِيلُ نَزَلَ بِهِ مِنْ اللَّهِ سَوَاءً كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُرْسَلَ بِهِ جِبْرِيلُ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِذَا كَانَ قَدْ أَنْزَلَهُ مَكْتُوباً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَقَدْ كَتَبَهُ كُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزَّلَهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ وَكَتَبَ أَعْمَالَ الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهَا كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَرِيحِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ ثُمَّ إِنَّهُ يَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ بِكِتَابَتِهَا بَعْدَ مَا يَعْمَلُوهَا؛ فَيُقَابِلُ بِهِ الْكِتَابَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ عَلَى الْوُجُودِ وَالْكِتَابَةَ الْمُتَأَخِّرَةَ عَنْهُ فَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا تَفَاوُتٌ هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ - وَهُوَ حَقٌّ -: وَمَنْ قَالَ إِنَّ جِبْرِيلَ أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنَ الْكِتَابِ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ اللَّهِ كَانَ

وكان عمر النبي ﷺ أول ما نزل عليه أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم^(١)، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ^(٢) وعطاء، وسعيد بن المسيب وغيرهم وهذه السن هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك. والذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى إلى النبي ﷺ، جبريل عليه السلام ^(٣) أحد

هَذَا بَاطِلًا مِنْ وُجُوهِ: ... اهـ [مجموع الفتاوى] (١٢ / ١٢٦).

(١) قال ابن حجر رحمته الله: المشهور أنه بعث على رأس الأربعين. اهـ [راجع "فتح الباري" عند حديث رقم: (٤٩٧٨)، وراجع "البداية والنهاية" لابن كثير].

(٢) أخرجه أحمد ط/ الرسالة، رقم: (٢١١٠) بسند صحيح، وابن أبي شيبة: (٣٦٥٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ». قال ابن القيم رحمته الله: فَلَمَّا كَمَلَ لَهُ أَرْبَعُونَ، أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورُ النُّبُوَّةِ وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَى خَلْقِهِ وَاخْتَصَّ بِكَرَامَتِهِ، وَجَعَلَهُ أَمِينَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ مَبْعَثَهُ ﷺ كَانَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَاخْتَلَفَ فِي شَهْرِ الْمُبْعَثِ. فَقِيلَ: لِثَمَانٍ مَضَيْنَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةً إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ مِنْ عَامِ الْفِيلِ، هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: بَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، وَاحْتَجَّ هُؤُلَاءُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، قَالُوا: أَوَّلُ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنُبُوَّتِهِ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يَحْيَى الصَّرَصِي حَيْثُ يَقُولُ فِي نُوْبَتِهِ: وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ... شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ. اهـ [زاد المعاد] (١ / ٧٦).

(٣) قال ابن كثير رحمته الله في "تفسيره" (سورة الشعراء: آية: ١٩٢ - ١٩٣): وهذا مما لا نزاع فيه. اهـ

قال شيخ الإسلام رحمته الله في "مجموع الفتاوى" (١٢ / ٢٧١): فَإِنَّهُ مَتَى قَالَ إِنَّ مُحَمَّدًا سَمِعَهُ مِنْ جِبْرِيلَ جَمِيعَهُ، وَجِبْرِيلَ سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ جَمِيعَهُ، وَالْمُسْلِمُونَ سَمِعُوهُ مِنَ الرُّسُولِ جَمِيعَهُ فَقَدْ

الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة^(١)؛ ما جعله أهلاً لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله.

قَالَ الْحَقُّ. اهـ

وقال شيخ الإسلام رحمته الله في "مجموع الفتاوى" (١٢ / ٢٩٨): لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ: أَنَّ النَّبِيَّ صلوات الله عليه سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ. اهـ

(١) قال ابن كثير رحمته الله في "تفسيره" (١ / ١٩): السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ صلوات الله عليه جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مَلَكٌ كَرِيمٌ ذُو وَجَاهَةٍ وَجَلَالَةٍ وَمَكَانَةٍ. اهـ

وقد وصفه الله عز وجل في كتابه الكريم بصفات عظيمة منها:

- أنه روح: لأنه نزل بما فيه حياة القلوب كما أن الروح حياة للجسد.
- أنه أمين: قال شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" (١٢ / ١١٨): أَيُّ مُؤْتَمَنٍّ عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ لَا يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ فَإِنَّ الرُّسُولَ الْحَقَّائِنَ قَدْ يُغَيِّرُ الرِّسَالَه. اهـ
- رسول: أي هو رسول من رسل الله من الملائكة إلى الأنبياء والرسل في الأرض.
- كريم: قال السعدي: لكرم أخلاقه، وكثره خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه. اهـ
- شديد القوى: أي شديد الخلق شديد البطش والفعل، فكان بما أعطاه الله من قوة أهلاً؛ لأن ينفذ أمر الله، ويحافظ على ماؤتمن عليه من كتاب الله في أن يتعرض له أحد بسوء حتى يبلغه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، وقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٥-٧]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقد بين الله تعالى لنا أوصاف جبريل الذي نزل بالقرآن من عنده وتدل على عظم القرآن وعنايته تعالى، فإنه لا يرسل من كان عظيماً إلا بالأمور العظيمة. (١)

- **عند ذي العرش مكين:** قال السعدي: أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم. اهـ

- **مطاع:** أي له جاه، فهو مسموع القول مطاع في الملاء الأعلى.

(١) قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره "سورة التكوير": وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة. والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل. اهـ

أول ما نزل من القرآن

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولى من سورة العلق^(١)، وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥]. ثم فتر الوحي مدة^(٢)، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١- ٥].

(١) قال البغوي في تفسيره (٨ / ٤٧٤): أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ خَمْسُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى قَوْلِهِ: "مَا لَمْ يَعْلَمْ". اهـ.

(٢) الْفَتْرَةُ: هِيَ الْإِنْقِطَاعُ، فَتَرِ الْوَحْيِ أَيِ انْقَطَعَ، وَتَأَخَّرَ نَزُّوْلُهُ. راجع الفتح (١ / ١٦٥).

و قد اشتهر أنه دام الإنقطاع ثلاث سنين ولا مستند صحيح صريح لذلك وما ورد في روايات فتور الوحي لا يحدد المدة التي كانت بين نزول أول سورة العلق ونزول أول سورة المدثر، فالله أعلم بمقدارها، ففي رواية البخاري: «وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول الله ﷺ» (صحيح البخاري ٦ / ٢١٥)، وفي طبقات ابن سعد: «لما نزل الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً» (الطبقات الكبرى ١ / ١٩٦)، قال ابن حجر: الْفَتْرَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي ابْتِدَاءِ الْوَحْيِ دَامَتْ أَيَّامًا. اهـ (ينظر: فتح الباري ١ / ٢٧ و ٨ / ٧١٠ و ١٢ / ٣٦٠).

ففي ((الصحيحين)) : عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت : حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ ، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما أنا بقارئ (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث ، وفيه ثم قال :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥] .

وفيهما عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال وهو يحدث عن فترة الوحي : « بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء » فذكر الحديث ، وفيه ،

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١-٥] .

وتمت آيات يقال فيها : أول ما نزل ، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين ، فتكون أولية مقيدة مثل : حديث جابر رضي الله عنه في ((الصحيحين)) : إن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأل : أي القرآن أنزل أول ؟ قال جابر : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١] قال أبو سلمة : أنبت أنه ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] فقال جابر : لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « جاورت في حراء فلما قضيت جواربي هبطت ... ، فذكر الحديث وفيه : (فأتيت خديجة فقلت : دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً ، وأنزل علي : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١] إلى قوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١-٥] .

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي ، أو أول ما نزل في شأن الرسالة ؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر: ٢] .

ولهذا قال أهل العلم : إن النبي ﷺ نبيٌّ بـ ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١] وأرسل بـ ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]. (١)

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿اقْرَأْ﴾ أَمْرٌ بِالْقِرَاءَةِ لَا بِتَبْلِغِ الرِّسَالَةِ وَبِذَلِكَ صَارَ نَبِيًّا. وَقَوْلُهُ {قُمْ فَأَنْذِرْ} أَمْرٌ بِالْإِنْذَارِ وَبِذَلِكَ صَارَ رَسُولًا مُنْذِرًا. اهـ
مجموع الفتاوى (١٦ / ٢٥٥).

فائدة : أول ما نزل من القرآن في مكة وآخر ما نزل فيها: أول ما نزل من القرآن في مكة أوائل سورة العلق ، و آخر ما نزل من القرآن في مكة قال الزركشي رحمه الله: وَاحْتَلَفُوا فِي آخِرِ مَا نَزَلَ بِمَكَّةَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْعُنْكَبُوتِ وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْمُؤْمِنُونَ وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَيُلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾. اهـ البرهان في علوم القرآن (١ / ١٩٤).
أما ﴿وَيُلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ، فالصحيح أنها مدنية كما في الصحيح .
راجع (الفتح) (٨ / ٨٨٨).

فائدة : آخر ما نزل من القرآن :

أما آخر ما أنزل من السور فقد اختلف فيه ، وأشهرها قولان :
(أ) عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رحمهما الله: تَعَلَّمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: «نَعَمْ، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»، قَالَ: صَدَقْتَ.
صحيح مسلم (٤ / ٢٣١٨).

(ب) وعن البراء رحمته الله ، قَالَ: « آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةً، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ: اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] ». رواه (البخاري) برقم (٤٦٠٥)

قال الحافظ رحمه الله: وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ آخِرِيَّةَ سُورَةِ النَّصْرِ نَزُولُهَا كَامِلَةً بِخِلَافِ بَرَاءَةٍ ، فَالْمُرَادُ

بَعْضُهَا أَوْ مُعْظَمُهَا وَإِلَّا فَفِيهَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ سَنَةِ الْوَفَاةِ النَّبَوِيَّةِ . اهـ فتح الباري لابن حجر (٨ / ٣١٦)، (٨ / ٧٣٤).

و أما آخر ما نزل من الآيات فقد اختلف فيه إلى أقوال أشهرها :

(أ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ « آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم آيَةُ الرَّبِّ » صحيح البخاري (٦ / ٣٣).

(ب) وَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : " آخِرُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] . السنن الكبرى للنسائي (١٠ / ٣٩) قال الشيخ مقبل في تحقيقه على تفسير ابن كثير سورة البقرة آية : ٢٨١ إسناده صحيح .

(ج) وَ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ الْبَرَاءِ - كَمَا تَقَدَّمَ - أَنَّ آخِرَ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ [النساء ١٧٦] . قَالَ الْحَافِظُ رحمته الله : وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ - بَيْنَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ -

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ - هِيَ خِتَامُ الْآيَاتِ الْمُنْزَلَةِ فِي الرَّبِّ إِذْ هِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَيْهِنَّ وَأَمَّا مَا سَيَأْتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بِرَاءَةٍ وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ فَيَجْمَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْآيَتَيْنِ نَزَلَتَا جَمِيعًا فَيَصْدُقُ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا آخِرٌ بِالنِّسْبَةِ لِمَا عَدَاهُمَا وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْآخِرِيَّةُ فِي آيَةِ النَّسَاءِ مُقَيَّدَةً بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَوَارِيثِ مَثَلًا بِخِلَافِ آيَةِ الْبَقَرَةِ وَيُحْتَمَلُ عَكْسُهُ وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ لِمَا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى مَعْنَى الْوَفَاةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لَخَاتِمَةِ النُّزُولِ . اهـ فتح الباري لابن حجر (٨ / ٢٠٥).

فائدة : أول ما نزل من القرآن في المدينة سورة البقرة : قال ابن حجر رحمته الله : وَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهَا مَدْنِيَّةٌ وَأَنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ بِهَا . اهـ راجع (الفتح) (٨ / ١٠).

نزول القرآن ابتدائي وسببي

وقال ابن كثير رحمته الله: البقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها. اهـ
راجع (تفسير ابن كثير) مقدمة تفسير سورة البقرة.

وقال شيخ الإسلام رحمته الله: و البقرة وإن كانت مدنية بالاتفاق ، و قد قيل إنها أول ما نزل بالمدينة فلا ريب إن هذا في بعض ما نزل ، و إلا فتحريم الربا إنما نزل متأخراً. اهـ
راجع (مجموع الفتاوى) (١٧ / ١٩٣).

و أما آخر ما نزل في المدينة فهي سورة النصر كما تقدم .

فائدة : فوائد معرفة أول ما نزل و آخر ما نزل :

بيان مدى عناية الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم ، فكانوا يحفظون الآية و يعرفون معناها و متى نزلت و أين نزلت و فيمن نزلت ، ففي هذا الحث العظيم لنا أن نحذوا حذوهم و نقتفي أثرهم ، فإن القرآن هو أصل ديننا و مبعث إيماننا و مصدر عزنا و مجدنا .
وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: و الله الذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا و أنا أعلم أين نزلت ، و لا أنزلت آية من كتاب الله إلا و أنا أعلم فيمن أنزلت .
رواه مسلم برقم (٢٤٦٢).

- معرفة الناسخ من المنسوخ ، فإذا عرف ما نزل أولاً ، و ما نزل آخرًا ، و كانا متعارضين و توفرت فيهما شروط النسخ كان الآخر ناسخاً للأول .

- ظهور حسن هذه الشريعة ، و الحكمة في التشريع ، و التدرج فيه ، فيقدم الأهم فالأهم .
راجع شرح الشيخ على أصول في التفسير.

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين^(١):

الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه،

وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] الآيات ...

فإنها نزلت ابتداءً في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة ابن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له.^(٢)

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه.^(٣)

(١) قال السيوطي **رحمته الله**: قَالَ الْجُعَيْرِيُّ: نُزُولُ الْقُرْآنِ عَلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ نَزَلَ ابْتِدَاءً، وَقِسْمٌ نَزَلَ عَقَبَ وَإِقْعَةً أَوْ سُؤَالَ. اهـ. [راجع "الإتقان في علوم القرآن" (١/ ١٠٧)].

(٢) هذه القصة لا تثبت: نص على ضعفها جمع من العلماء المتقدمين والمتأخرين ومنهم: ابن حزم والبيهقي والقرطبي والذهبي والعراقي والهيثمي وابن حجر والألباني وشيخنا الوادعي عليهم رحمة الله، [راجع "الصحيح المسند من أسباب النزول" (ص: ٩ ١٠)، لشيخنا الوادعي **رحمته الله**]، وقال: بعد أن ذكر سبب ضعفها، ومن ضعفها من أهل العلم وإنما مثلت بهذه القصة؛ لشهرتها في كتب التفاسير؛ ولأن كثيراً من إخواننا المشتغلين بالوعظ والإرشاد وفقني الله وإياهم يستحسنونها، ويلقونها على العامة غير متبهين، ومع عدم صحتها سنداً فهي لا تصح معناً؛ إذ فيها مخالفة لأصل من أصول الشريعة؛ وهو أن التائب لو بلغت ذنوبه عنان السماء ثم تاب، تاب الله عليه. اهـ.

(٣) تعريف سبب النزول:

- السبب في اللغة: كل شيء يتوصل به إلى غيره.

والسبب:

أ - إما سؤال يجب الله عنه مثل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ب - أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] الآيتين نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأباليه ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيجيبه: ﴿أَبِاللَّهِ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]. (١)

-تعريف سبب النزول اصطلاحاً: هو ما نزلت الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمه وقت وقوعه. (أو): هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

[راجع قواعد التفسير" للسبت (١ / ٥٣)، "مباحث في علوم القرآن" لمناع القطاع (ص: ٧٧)]

وقال: ومن الإفراط في علم سبب النزول أن نتوسع فيه، ونجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية، والوقائع الغابرة، قال السيوطي: والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحد في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك. اهـ

(١) قال شيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللهُ: أخرجه ابن أبي حاتم (٤ / ٦٣)، وساق سنده عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما وقال: الحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في "الميزان"، وأخرجه الطبري من طريقه: (١٠ / ١٧٢)، وله

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. (١)

شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم: (٦٤ / ٤) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. اهـ.
[راجع الصحيح المسند من أسباب النزول (ص: ١٠٩)].
(١) قال شيخنا مقبل الوادعي رحمته الله: في "الصحيح المسند من أسباب النزول (ص: ٢٠٤)":
قال أحمد في "المسند" (٦ / ٤٦): ثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها: قالت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية. [الحديث أخرجه البخاري تعليقا: (١٧ / ١٤٣)، والنسائي (٦ / ١٣٧)، وابن ماجه رقم: (١٨٨) ورقم: (٢٠٦٣)، وابن جرير (٢٨ / ٦٥) والحاكم: (٢ / ٤٨١) وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي. اهـ.]

• قواعد في أسباب النزول:

القاعدة الأولى: ما يعتمد عليه في إثبات سبب النزول:

أسباب النزول يعتمد في إثباتها على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة رضي الله عنهم، فإن إخبار الصحابي عن سبب النزول يكون مما له حكم الرفع.
قال الواحدي رحمته الله: لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها، وجدوا في الطلب. اهـ.
[راجع "الإتقان" (١ / ٨٩)].

قال شيخنا العلامة الوادعي رحمته الله: العلماء يعتمدون في معرفة أسباب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابي، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا مما له حكم الرفع، كما قال ابن الصلاح في "علوم الحديث" (ص: ٤٦). اهـ.

[راجع "الصحيح المسند من أسباب النزول" (ص: ١٦)].

القاعدة الثانية: أسباب النزول الواردة عن التابعين ما حكمها:

الصحيح أنها من قبيل المرسل، والمرسل من قسم الضعيف، وأسباب النزول يشترط فيها الصحة، لكن قال أهل العلم:

قال السيوطي رحمته الله: إذا وقع من تابعي فهو مرفوع أيضاً لكنه مرسل، فقد يقبل إذا صح المسند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك. اهـ [راجع "الإتقان" (١ / ٩١)].

قال شيخنا العلامة الوادعي رحمته الله: وأما قول التابعي: نزلت في كذا فهو مرسل، فإن تعددت طرقه قُبل، وإلا فلا، على الراجح عند المحدثين. اهـ [راجع "أسباب النزول" (ص: ١٧)].

القاعدة الثالثة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

شرح هذه القاعدة فيما سيأتي (ص: ٤٣).

القاعدة الرابعة: قد تنزل الآية ويكون لها أكثر من سبب:

شرح القاعدة: أنه قد تنزل آية أو آيات ويذكر لها أهل العلم أكثر من سبب نزول. مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية [التحریم: ١]، فقد ورد في نزولها سببان:

الأول: أن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش رضي الله عنها ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني لأجد منك ريح مغاير، أكلت مغاير، فدخل على أحدهما، فقالت له ذلك. فقال: «لا بأس، شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له». فنزلت الآيات.

[رواه البخاري رقم (٤٩١٢) مع "الفتح"].

الثاني: عن أنس رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرماها، فأنزل الله عز وجل الآيات. رواه النسائي وصححه شيخنا الوادعي

في "الصحيح المسند من أسباب النزول" (ص: ٢٥٣). قال الحافظ رحمته الله في "الفتح":
يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً. اهـ. ["الفتح" عند حديث رقم: (٤٩١٢)].
قال الشوكاني رحمته الله في "تفسيره": فهذان سببان صحيحان لنزول الآية والجمع ممكن بوقوع
القصتين: قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه
أسر الحديث إلى بعض أزواجه. اهـ. تفسير الشوكاني عند الآية.

لكن ينبغي أن يتنبه أنه لا يحكم بتعدد السبب إلا إذا توفرت فيها أمور:

- الأول: ثبوت السببين: فإذا كان أحدهما غير ثابت فيقتصر على الثابت وي طرح ما عداه.
- الثاني: العبارة: فيقدم السبب الصريح على غير الصريح فيكون الأول هو سبب النزول د
ون غير الصريح وإن صح.

- الثالث: تقارب الزمان: فإن كان كلا السببين صحيحاً وصريحاً وتقارب زمن وقوعهما حُمل
على تعدد السبب، وإلا إذا تباعد الزمان حُمل على تكرار النزول بأن تكون الآية نزلت أكثر
من مرة.

وبعض أهل العلم يرجح أحد السببين في هذه الحالة، والقول بتكرار النزول أولى، لأنه جمع
بين الأدلة وإعمالها، وهو أولى من الترجيح وإهمالها، وتكرار النزول لا يستغرب فإن القرآن
نزل بسبعة أحرف نزل بمكة بعضه بحرف واحد وهو لغة قريش، ونزلت بقية الأحرف في
المدينة، وهذا يعني أن السور المكية نزلت مرة أخرى بالمدينة بالأحرف الأخرى ولتكرار
النزول فوائد منها: التذكير بالحكم السابق والتأكيد له. [راجع "الإتقان" (١ / ٩١ - ٩٤)
و"قواعد التفسير" (١ / ٦٩ - ٧٥)].

القاعدة الخامسة: قد يكون السبب واحداً وتنزل فيه أكثر من آية:

شرح القاعدة: قد يوجد سبب من الأسباب فتتزل في حقه أكثر من آية كل منهما في سورة
مستقلة، مع أن السبب الذي أدى إلى نزولها واحد. اهـ. [راجع "الإتقان" (١ / ٩٧)]

مثال ذلك: ما أخرجه البخاري ومسلم عن المسيب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه
رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال ﷺ: «أي: عم،

قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. [رواه البخاري رقم (١٣٦٠)، ومسلم رقم (٢٤)].

مثال آخر: ما رواه الترمذي - وهو في "صحيح الترمذي" للألباني برقم: (٢٤١٩) وقال: صحيح الإسناد - والنسائي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: «يغزو الرجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث»، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]. قال مجاهد: (وأنزل فيها: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾) [الأحزاب: ٣٥]، وكانت أم سلمة أول ضعيفة قدمت مهاجرة، وهذا المثال ذكره أكثر من ألف في أصول التفسير.

تنبيه: هذا الأثر في سبب النزول اشتهر في كتب أصول التفسير، وقد اختلف في صحته فأحببت أن أذكره لأنبه على ذلك: الأثر من طريق مجاهد عن أم سلمة رضي الله عنها. وقال الترمذي رحمته الله: هذا مرسل يعني قول مجاهد: (قالت أم سلمة) باعتبار أن مجاهداً لم يدركها.

وقال الحاكم رحمته الله: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهداً أم سلمة، وقال في موضع آخر: صحيح على شرط الشيخين.

ومنهم من أثبت سماعه منها بحجة أنه ولد سنة (٢١هـ) وماتت أم سلمة سنة (٦٠هـ) وهو لم يتهم بالتدليس فإمكان اللقاء حاصل يقيناً، وقد حسن ابن حجر هذا الحديث ورد على من أعله بقوله: ومجاهد قد ثبت سماعه من علي رضي الله عنه وهو أقدم موتاً من أم سلمة بعشرين سنة. اهـ

فوائد معرفة أسباب النزول

معرفة أسباب النزول مهمة جداً، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:

١ - بيان أن القرآن نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحياناً، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبيناً له. مثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ففي صحيح البخاري: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً من اليهود، قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحي إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية، مثال الثاني قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَنْ يَرَجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وفي صحيح البخاري: أن زيد ابن أرقم سمع عبد الله بن أبي رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله ﷺ وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي ﷺ، فدعا النبي ﷺ زيدا فأخبره بما سمع، ثم أرسل إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ.

وقد صححه العلامة الألباني عليه رحمة الله، وأما شيخنا الوادعي فقال: مجاهد كثير الإرسال عن الصحابة فلا يدرى أسمع من أم سلمة أم لا. اهـ ولعل هذا هو الراجح لاسيما، وقد حكم الترمذي على روايته عنها بالإرسال، وهو من أئمة هذا الشأن، والله أعلم.

[راجع "الاستيعاب في الأسباب" (١ / ٣٨١) و"أسباب النزول" لشيخنا الوادعي].

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي ﷺ وتطهير له عما دنسه به الأفاكون.

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم. مثال ذلك آية التيمم، ففي "صحيح البخاري": أنه ضاع عقد لعائشة رضي الله عنها، وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأقام النبي ﷺ لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، والحديث في البخاري مطولاً.

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح^(١). مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري "عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلى قوله: ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾

(١) قال الواحدي رحمته الله: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

اهـ

قال ابن دقيق العيد رحمته الله: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. اهـ

قال ابن تيمية رحمته الله: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. اهـ [راجع "الإتقان" للسيوطي (١/ ٨٤)].

[البقرة: ١٥٨]، وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تخرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنها من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]. (١)

عموم اللفظ وخصوص السبب

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملاً لسببها، ولكل ما يتناول لفظها؛ لأن القرآن نزل تشريعاً عاماً لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩] ففي "صحيح البخاري": من حديث ابن عباس رضي الله عنه: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلی الله علیہ وسلم بشريك بن سحماء، فقال النبي صلی الله علیہ وسلم: البينة أو حد في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرء ظهري

(١) ومن فوائد معرفة أسباب النزول:

- معرفة اسم من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها.
- مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١-٢]، اتضح من النظر في سبب النزول أن الأعشى ابن أم مكتوم.
- تثبيت الوحي وتيسير الحفظ والفهم وتأكيد الحكم في ذهن من يسمع الآية. [راجع "الإتقان" للسيوطي (١ / ٨٣)، و"المدخل لدراسة القرآن" (ص: ١٢٥) و"مباحث في علوم القرآن" (ص: ٧٩)].

من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٦]، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩].

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك. فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمي الله في كتابه، فلاعنها. فجعل النبي صلى الله عليه وسلم حكم هذه الآيات شاملاً لهلال بن أمية وغيره. (١)

(١) [العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب] قاعدة عليها جماهير علماء المسلمين، ومن خالفهم في أصل القاعدة لم يخالفهم في الأحكام الشريعة المترتبة عليها، فهو وإن لم يستدل بالدليل العام الذي نزل بسبب خاص في بقية المكلفين فإنه ينزل الحكم عليها بدليل آخر وهو القياس.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: الذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من المسلمين أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فيهم وما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (١٣ / ٣٣٨)]

قال ابن كثير رحمته الله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَانَتَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧]، قال: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، والأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. اهـ [راجع تفسيره عند الآية].

المكي والمدني

وقال السيوطي رحمه الله : اختلف أهل الأصول هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟ والأصح عندنا الأول، وقد نزلت آيات في أسباب واتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها. اهـ [راجع "الإتقان" (١ / ٨٦)]

قال السعدي رحمه الله : العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وهذه قاعدة نافعة جداً بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير ويقع الغلط والارتباك، وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم. اهـ [راجع "القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن"]

قال شيخنا مقبل رحمه الله : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والدليل على ذلك أن الأنصاري الذي قبل الأجنبية، ونزلت فيه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ألي هذا وحدي، يا رسول الله؟ ومعنى هذا: هل حكم هذه الآية يختص بي؛ لأنني سبب نزولها، فأفتاه النبي صلى الله عليه وسلم بأن العبرة بعموم اللفظ، فقال: «بل لأمتي كلهم». اهـ [راجع "الصحيح المسند من أسباب النزول" (ص: ١٧)].

تنبيه: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن ليعلم أن خصوص السبب إذا كان وصفاً أو معنى من أجله ورد العام فإنه يختص بهذا المعنى أو الوصف.

مثال ذلك: «ليس من البر الصيام في السفر»، فلو أخذنا هذا اللفظ على عمومته لكان الصوم في السفر مخالفاً للبر سواء شق أم لم يشق، وهذا الحديث نزل في رجل شق عليه الصوم، فهذا العموم ينتزل على من كانت حاله مثل حاله، بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصوم صوماً هو وأصحابه في السفر، وعليه فإن خصوص السبب إما أن يكون خصوصاً عينياً أو وصفاً، فإن كان عينياً فإنه لا يخص به العموم قطعاً، وإن كان وصفاً فإنه يخص به العموم فيكون خاصاً بمن اتصف بهذه الصفة. [راجع "فتح الباري" حديث رقم: (١٩٤٦)].

نزل القرآن على النبي ﷺ مفرقا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله ﷺ أكثرها بمكة، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ولذلك قسم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين:

مكي ومدني:

- فالمكي: ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.
 - والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.
- وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، من القسم المدني وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حجة الوداع بعرفة، ففي "صحيح البخاري": عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم الجمعة. (١)

(١) قال الزركشي رحمته الله: المشهور أن المكِّي ما نَزَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَإِنْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ وَالْمَدَنِيِّ مَا نَزَلَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ وَإِنْ كَانَ بِمَكَّةَ. اهـ

"البرهان" (١ / ١٨٧)، و [راجع "الإتقان" للسيوطي (١ / ٢٨)].

فائدة: نقل الزركشي والسيوطي عن القاضي أبي بكر في (الانتصار) أنه قال: لم يكن من النبي ﷺ ولا ورد عنه أنه قال: اعلّموا أن قدر ما نزل بمكة كذا، وبالمدينة كذا وفصله لهم، ولو كان منه ذلك لظهر وانتشر وإنما لم يفعله؛ لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة. اهـ [راجع البرهان للزركشي: (١ / ١٨٧)، و "الإتقان" للسيوطي: (١ / ٢٨)].

فائدة: إن العمدة في معرفة المكي والمدني ما صح عن الصحابة رضي الله عنهم، أو ممن أخذ عنهم من التابعين.

قال الزركشي والسيوطي: قال القاضي أبي بكر في (الانتصار): إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين.... اهـ [راجع "البرهان" (١ / ١٨٧) و"الإتقان" (١ / ٢٨)].

قال الزرقاني رحمته الله: ولا سبيل لمعرفة المكي والمدني إلا بنص الصحابي والتابعي، ولم ينص الرسول صلوات الله عليه وآله عليه لعدم حاجة الصحابة إليه، لأنهم مشاهدون للوحي والتنزيل. اهـ [راجع "مناهل العرفان" (١ / ١٧٠)]

فائدة: قال الزركشي رحمته الله: لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي وقياسي. اهـ [راجع "البرهان" (١ / ١٨٩)]

- الأولى: سماعي: إذا وجد النص أو النقل عن الصحابي أو التابعي.

- الثاني: قياسي: هو اجتهاد من العالم ينظر فيه إلى خصائص السور المكية، وإلى خصائص السور المدنية، فإذا وجد آية أو سورة تحمل طابع التنزيل المكي حكم عليها بأنها مكية، وإذا وجد آية أو سورة تحمل طابع التنزيل المدني حكم عليها بأنها مدنية، وما اعتمدوا عليه إنما هي أمور تقريبية، وأغلبية لذلك قد يصيبون وقد يخطئون.

ومن القرائن التي يعتمدون عليها في الطريقة القياسية:

- كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فَقَطْ وليس فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فَهِيَ مَكِّيَّةٌ، وَفِي الْحَجِّ اخْتِلَافٌ كُلُّ سُوْرَةٍ فِيهَا: ﴿كَلَّا﴾، فَهِيَ مَكِّيَّةٌ قَالَ الدِّيرِينِي:

وما نزلت كلا يبشر فاعلمنْ ولم تأتْ في القرآن في نصفه الأعلى. اهـ

يستثنى من ذلك: المطففين، ففيها خلاف، والراجح أنها مدنية.

- كل سورة أَوَّلُهَا حُرُوفُ تَهْجٍ، فَهِيَ مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَفِي الرَّعْدِ خِلَافٌ، أَوْ فِيهَا قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ سِوَى الطُّوْلِى فَهِيَ مَكِّيَّةٌ، وَكُلُّ سُورَةٍ فِيهَا قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ، الْخَالِيَةِ مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْأَعْرَافَ كُلُّ سُوْرَةٍ فِيهَا سَجْدَةٌ فَهِيَ مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْحَجَّ.

- وَكُلُّ سُورَةٍ فِيهَا فَرِيضَةٌ أَوْ حَدٌّ فِيهَا مَدِينَةٌ كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ فَمَدِينَةٌ سِوَى الْعَنْكَبُوتِ كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهي مدينة كل سورة فيها ذكر الجهاد، فهي مدينة كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدينة.

- تنبيه: هذه القواعد أغلبية:

قال الزركشي رحمته الله: وَهَذَا الْقَوْلُ إِنِ اخْتَلَفَ عَلَى إِطْلَاقِهِ فِيهِ نَظَرٌ فَإِنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ مَدِينَةٌ وَفِيهَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، وسورة النساء مدينة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١]، وفيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: ١٣٣]، وسورة الحج مكية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧]، فَإِنْ أَرَادَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الْغَالِبَ ذَلِكَ فَهُوَ صَحِيحٌ وَلِذَا قَالَ مَكِّيٌّ: هَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْأَكْثَرِ، وَلَيْسَ بِعَامٍّ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. اهـ [راجع هذه الفوارق في "مجموع الفتاوى" لشيخ الإسلام (١٦٠/١٥-١٦١) و(١٦٩/١٦) و"البرهان" (١٨٩/١) و"الإتقان" (٦٨/١)].

فائدة: الحكم للسورة بأنها مكية أو مدنية إنما هو لأغلب آياتها.

فائدة: سور القرآن تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- الأول: المتفق على مدنيتهما: وهي عشرون سورة:

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، "الفتح"، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، النصر.

- الثاني: المختلف فيها: وهي اثنا عشر سورة: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف،

التغابن، المطففين، القدر، لم يكن، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس. وأما

المكي ما عدا ذلك. [راجع "المدخل لدراسة القرآن الكريم" لأبي شهبه (ص: ٢٠٣)،

و"الإتقان" للسيوطي: (١ / ٢٩)].

ويتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أما من حيث الأسلوب فهو:

الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة الخطاب، لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، أقرأ سورتي المدثر، والقمر.
أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسهولة الخطاب، لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، أقرأ سورة المائدة.

٢- الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة، لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون، فخطبوا بما تقتضيه حالهم، أقرأ سورة الطور.
أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام، مرسلة بدون محاجة، لأن حالهم تقتضي ذلك، أقرأ آية الدين في سورة البقرة.

وأما من حيث الموضوع فهو:

وقد رجح العلامة الزركشي رحمته الله: أن السور المكية المتفق عليها أو المختلف فيها والراجح أنها مكية تبلغ خمساً وثمانين سورة، وأن السور المدنية المتفق عليها أو المختلف فيها، والراجح أنها مدنية تبلغ تسعاً وعشرين سورة. [راجع "البرهان" (١ / ١٩٣ - ١٩٤)].
وقد نظمها الشيخ فتح القدسي - حفظه الله - وهو أحد طلبة شيخنا أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي رحمته الله - فقال:

المدني سورة مشتهرة	عشرون مع تسع، وهنّ البقرة
واعدد ثلاثاً بعد والمجادلة	وجزؤها فتح حديد زلزلة
أحزاب رعد التوبة الإنسان	محمد الأنفال والرحمن
مطففين الحج نور بيّنة	والحجرات نصر خذها بينة

[راجع البحث في "المكي والمدني" لعبدالرزاق أحمد: (١ / ١٢٧)].

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصًا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث؛ لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك. (١)
أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات، لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي. (٢)

فوائد معرفة المكي والمدني

(١) ومما امتاز به المكي من حيث الموضوع:

أ- ذكر قصص الأنبياء، وما حصل لهم مع أعدائهم، وما نزل على مخالفيهم من العقوبة، لما في ذلك من تثبيت للنبي ﷺ والمسلمين، ومواساتهم فيما كان يصيبهم، وإنذار أعدائهم وأخذ العبرة والعظة بقصص الأنبياء.

ب- الدعوة إلى أصول الأخلاق التي اتفقت عليها الأمم التي لا تتغير بزمان ولا مكان كالصدق وصلة الأرحام وإكرام الجار والعدل والإحسان، مثال ذلك آية الوصايا العشرة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: هذه الأمور - التي دلت عليها آية الوصايا العشرة - هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع، كعامة السور المكية، فإن السور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله، إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (١٥ / ١٦٠)].

(٢) ومما امتاز به المدني من حيث الموضوع: محاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم. [راجع "المكي والمدني" لعبد الرزاق أحمد: (١ / ١٦٨)]

مثال ذلك: سورة: البقرة وآل عمران والمائدة.

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة، وذلك لأن فيها فوائد منها:

- ١- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.
- ٢- ظهور حكمة التشريع في أسمى غايته حيث يتدرج شيئاً فشيئاً بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.
- ٣- تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.
- ٤- تمييز النسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها. (١)

(١) ومن فوائده أيضاً:

- أنه معين ومساعد لمعرفة سيرة الرسول ﷺ، وذلك بمتابعة أحواله في مكة وما نزل عليه، وأحواله في المدينة وما نزل عليه.
- أنه يعين على فهم القرآن، لأنه إذا علم المكان والزمان والمخاطب بالآية سهل فهم معناها والمراد منها.
- بيان مدى عناية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالقرآن الكريم، فيكون ذلك معيناً أن نحذوا حذوهم ونسير على طريقتهم في بذل الوسع في العناية بكتاب الله ﷻ، وقد تقدم كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت. رواه مسلم (٢٤٦٢).

الحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقا

من تقسيم القرآن إلى مكّي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مفرقا. ولنزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها:

١ - تثبيت قلب النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، يعني كذلك نزلناه مفرقا ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ليصدوا الناس عن سبيل الله: ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣]. (١)

فائدة: قال أبو جعفر بن النحاس رحمه الله في (تمييز الناسخ والمنسوخ): إنما يذكر ما نزل بمكة والمدينة؛ لأن فيه أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ، لأن الآية إذا كانت مكية، وكان فيها حكم، وكان في غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره علم أن المدنية نسخت المكية. اهـ [الناسخ والمنسوخ لابن النحاس: (٢/٦١١)].

وقال القرطبي رحمه الله: ينبغي له - أي المفسر - أن يعرف المكّي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندهم في آخره، وما فرض في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكّي في أكثر القرآن. اهـ [راجع "مقدمة تفسيره"].

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند الآية: فأجابهم الله تعالى بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام؛ ليثبت قلوب المؤمنين . اهـ

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئا فشيئا، لقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. (١)

٣- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان.

٤ - التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يجابهوا بالمنع منه منعاً باتاً، فنزل في شأنه أولاً قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فكان في هذه الآية تهيئة

(١) قال العلامة الألوسي رحمته الله في تفسيره عند الآية: أي آتيناك قرآناً فرقناه أي أنزلناه منجماً مفرقا ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، أي بتؤدة وتأن فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم. اهـ

تنبيه: ذكر بعض أهل العلم أن جميع الكتب السماوية نزلت مفرقة، وأنه لا دليل على أنها نزلت جملة واحدة.

قال السيوطي رحمته الله: القول إن سائر الكتب أنزلت جملة هو المشهور في كلام العلماء حتى كاد يكون إجماعاً، وقد رأيت بعض الفضلاء أنكر ذلك وقال: إنه لا دليل عليه، بل الصواب أنها نزلت مفرقة، وأقول: الصواب الأول، ومن الأدلة على ذلك آية الفرقان السابقة.... اهـ [راجع "الإتقان" للسيوطي: (١ / ١٢١)].

للفوس لقبول تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئاً إثمه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانياً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعاً باتاً في جميع الأوقات، بعد أن هيئت النفوس، ثم مرنت على المنع منه في بعض الأوقات.

ترتيب القرآن

ترتيب القرآن: تلاوته تالياً بعضه بعضاً حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع^(١):

(١) زاد المؤلف قسماً رابعاً في الشرح فقال: [ترتيب الحروف في الكلمة]:

النوع الأول: ترتيب الكلمات^(١)، بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولانعلم مخالفاً في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: الله الحمد رب العالمين بدلاً من: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]^(٢).

النوع الثاني: ترتيب الآيات^(٣) بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته ولا

قال الشيخ العثيمين رحمته الله: لم نذكره في الأصل لأنه لا أحد يتجرأ عليه، ولا شك في تحريمه، وهو مخالفة الترتيب في الحروف في الكلمة الواحدة، فإن ذلك بالنص والإجماع غير جائز؛ لأنه تحريف للكلمة عن موضعها. [راجع "شرح أصول التفسير" للعثيمين].

- عدد حروف القرآن: وأما حروف القرآن فأجمعوا على ثلاثمائة ألف حرف واختلفوا في الكسر الزائد على ذلك. [راجع "المصاحف" لابن أبي داود، ص: (٢٨٠)، و"البرهان" (١/ ٢٤٩)، و"الإتقان" (١/ ٢٣١)].

(١) تعريف الكلمة، لغة واصطلاحاً: الكلمة لغة: اللفظ المفرد، وتطلق على الجمل المفيدة. اصطلاحاً: اللفظ المفرد من القرآن الكريم. مثل قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، ف ﴿مَالِكِ﴾ كلمة، و ﴿يَوْمِ﴾ كلمة، و ﴿الدِّينِ﴾ كلمة. [راجع "الكليات"].

(٢) وقد ذكر ابن حزم في "مراتب الإجماع" (ص: ٢٧٠): أنهم اتفقوا على أن من بدل حرفاً منه من مكانه وأقيمت عليه الحجة فعاند فإنه يكفر. اهـ

(٣) الآية لغة: تأتي في اللغة بمعنى العلامة، وعلى هذا تكون الآية من القرآن علامة على صدق من جاء بها، أو لأنها علامة على انفصال ما قبلها عما بعدها. وتطلق الآية على الجماعة، تقول: خرج القوم بآيتهم أي جماعتهم. قال ابن فارس: ومنه آيات القرآن، لأنها جماعة حروف. اهـ وتأتي على غير ذلك من المعاني.

يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلا من: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣٤]، ففي "صحيح البخاري": أن عبد الله بن الزبير G قال لعثمان بن عفان **رحمته** في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، قد نسخها الآية الأخرى يعني: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهذه قبلها في التلاوة، قال: فلم تكتبها؟ فقال عثمان **رحمته**: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه. (١)

الآية اصطلاحاً: عرفت بتعاريف منها:

- طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.
- جزء من السورة لها مبدأ أو نهاية.

والآية: لا بد أن تكون جملة سواء كان تركيبها حقيقي أو تقديري أو ملحقة بها.

- مثال الحقيقي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. مثال التقديري: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]، أي: هما مدهامتان، ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، أي: أقسم بالفجر. مثال الملحق بالجملة: فواتح السور من الحروف المقطعة، فقد عُد أكثرها آيات. [راجع "جمع القرآن - دراسة تحليلية لمروياته" (ص: ٢٠٨)].

(١) فائدة عدد آيات القرآن: ستة آلاف ومائتا آية، واختلفوا فيما زاد عن ذلك.

قَالَ الدَّانِي **رحمته**: أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ عَدَدَ آيَاتِ الْقُرْآنِ سِتَّةُ آلَافِ آيَةٍ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَزِدْ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: وَمِائَتَا آيَةٍ وَأَرْبَعُ آيَاتٍ وَقِيلَ: وَأَرْبَعُ عَشْرَةَ وَقِيلَ: وَتَسَعُ

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي^(١): من حديث عثمان رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول، ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.^(٢)

عَشْرَةٌ وَقِيلَ: وَخَمْسٌ وَعِشْرُونَ وَقِيلَ: وَسِتُّ وَثَلَاثُونَ. اهـ [راجع "البرهان" (١/٢٤٩)، و"الإتقان" (١/٢٣٢)، و"مناهل العرفان" (١/٣٤٣)، و"المدخل" لأبي شهبه (ص: ٢٨٠)].

(١) (ضعيف)، أخرجه أحمد ط/ الرسالة (٣٩٩)، أبو داود (٧٨٦) (٧٨٧)، والنسائي في "الكبرى" (٨٠٠٧)، والترمذي (٣٠٨٦)، من طرق عن عوف بن أبي جميلة، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس عن عثمان به. إسناده ضعيف ومتنه منكر، يزيد الفارسي هذا لم يرو عنه هذا الحديث غير عوف بن أبي جميلة، وهو في عداد المجهولين، وقد انفرد بروايته، وقال الحافظ في "التقريب": مقبول، قال الشيخ الألباني: في ضعيف أبي داود - الأم (١/٣٠٦): قلت: إسناده ضعيف؛ يزيد الفارسي ضعفه البخاري والعسقلاني رحمه الله عليهما وقال عنه في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١/١٧١): منكر. اهـ

(٢) ترتيب الآيات: وهي أن تكون كل آية حسب موضعها من السورة أمر توقيفي، وهذا ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما نقل من قراءته بالتواتر، أن الآيات فيه مرتبة، كما نقل إلينا. و مما يدل على أن ترتيب الآيات توقيفي حديث عثمان رضي الله عنه الذي ذكره المؤلف.

قال ابن حجر رحمته الله في شرحه لحديث عثمان رضي الله عنه: في جواب عثمان دليل على أن ترتيب الآي توقيفي. اهـ [راجع "الفتح" حديث رقم (٤٥٣١)]، وقد نقل غير واحد الإجماع على هذا الترتيب.

النوع الثالث: ترتيب السور^(١) بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبا وفي "صحيح مسلم": عن

قال الزركشي **رحمته الله**: الآيات في كل سورة ووضع البسملة، ترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه ولهذا لا يجوز تعكيسها. اهـ [راجع "البرهان" (١/٢٥٦)].
قال السيوطي **رحمته الله**: الإجماع والنصوص المترددة على أن ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك، أما الإجماع فنقله غير واحد.... اهـ [راجع "الإتقان" (١/١٧١-١٧٢)].
(١) تعريف السورة لغة واصطلاحاً:

السورة لغة: المنزلة، ولعل تسمية سور القرآن بذلك لأنها منزلة بعد منزلة، مقطوعة عن الأخرى.

وقيل: مأخوذة من السور، كسور المدينة لإحاطتها بآياتها إحاطة السور بالبيان.

السورة اصطلاحاً: طائفة من القرآن ذات مطلع ومقطع ألقها ثلاث آيات.

[راجع "قواعد التفسير" (١/١٠٠-١٠١)، و"المدخل لدراسة القرآن" ص: (٢٧٨-٢٨٦)].

مسألة: اختلف أهل العلم في ترتيب السور في المصحف هل هو توقيفي أم اجتهادي، إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه توقيفي، وأن هذا الترتيب الموجود في المصحف اليوم لسور القرآن كان بأمر

النبي **صلوات الله عليه وآله وسلم**.

وممن ذهب إلى هذا القول ابن النحاس والكرماني وابن الحصار وأبو بكر الأنباري والطبري، ولهم أدلة لا مجال لبسطها ومناقشتها.

القول الثاني: أنه اجتهادي: صدر عن اجتهاد الصحابة **رضي الله عنهم**.

وهذا قول الجمهور وهو قول الإمام مالك عليه **رحمته الله**، وهو الذي اختاره شيخ الإسلام **رحمته الله** حيث قال: تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة في

كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان **ي**صار هذا مما سنّه الخلفاء الراشدون **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، وقد دل الحديث أن لهم سنة يجب إتباعها. وسذكره المؤلف قريباً

قال أبو جعفر الغرناطي **رَحِمَهُ اللَّهُ** : والجمهور من العلماء، إلى أن ترتيب السور إنما وقع باجتهاد الصحابة، وأن رسول الله **ﷺ** فوض ذلك إلى أمته بعده، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن ذلك إنما وقع بتوقيفه وأمره، ولكل من الطائفتين جهات تعلق، وكلا القولين والحمد لله لا يقدح في الدين، ولا يثمر إلا اليقين. اهـ "البرهان في تناسب سور القرآن" (ص: ١٨٢).

و مما يدل على أنه اجتهادي اختلاف مصاحف الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** وهذا يدل على أنه اجتهادي لا توقيفي. قال الزركشي **رَحِمَهُ اللَّهُ** : قال القاضي أبو بكر بن الطيب: قد اختلف السلف في ترتيب القرآن فمنهم من كتب في المصحف على تاريخ نزولها، وقدم المكي على المدني، وجعل من أوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١]، وهو أول مصحف علي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وأما مصحف ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فأوله الفاتحة ثم البقرة ثم النساء، على ترتيب مختلف، وفي مصحف أبي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** كان أوله الحمد ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة على اختلاف شديد. فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم على وجه الاجتهاد من الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**. اهـ

القول الثالث: أنه توقيفي إلا شيء يسير منه.

وهذا القول مال إليه القاضي أبو محمد بن عطية والبيهقي واختاره ابن حجر والسيوطي، واختلفوا في تحديد التوقيفي من غيره.

قال السيوطي **رَحِمَهُ اللَّهُ** : والذي ينشرح إليه الصدر أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال. اهـ

والراجح والله أعلم أنه صدر عن اجتهاد من الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، فبعضها استفادوه من قراءة النبي **ﷺ** وبعضها اجتهدوا فيه من عند أنفسهم.

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري تعليقا عن الأحنف: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أنه صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما. (١)

قد قال ابن كثير رحمته الله: ترتيب الآيات في السور أمر توقيفي، متلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً آياته، فإن نكسه خطأ خطأ كبيراً وأما ترتيب السور فمستحب، اقتداءً بعثمان رضي الله عنه، والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً، كما قرأ صلى الله عليه وسلم في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقون، وتارة بسبح والغاشية، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في العيد بقاف واقتربت الساعة، رواه مسلم عن أبي واقد رضي الله عنه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿آل﴾ السجدة و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾، وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضاً، فقد روى حذيفة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. [أخرجه مسلم. اهـ، راجع "فضائل القرآن" من مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ٤٠)].

(١) **إسناده صحيح**. أخرجه البخاري "معلقا" (١/ ١٥٤)، ووصله الحافظ في "تغليق التعليق" (٢/ ٣١٣)، وقال "الفتح" (٢/ ٢٥٧): وَصَلَهُ جَعْفَرُ الْفَرْيَابِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ لَهُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ صَلَّى بِنَا الْأَخْنَفُ فَذَكَرَهُ وَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ يُؤْنَسُ وَلَمْ يَشْكْ قَالَ وَزَعَمَ أَنَّهُ صَلَّى خَلْفَ عُمَرَ كَذَلِكَ وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْمُسْتَخْرَجِ. اهـ ووصله الطحاوي في "شرح معاني الآثار" (١/ ١٨٠)، فقال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْزِيمَةَ، قَالَ: ثنا مُسْلِمُ بْنُ أَبِرَاهِيمَ، قَالَ: ثنا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ: ثنا بُدَيْلُ بْنُ مَيْسَرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، قَالَ: صَلَّى بِنَا الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِعَاقُولِ الْكُوفَةِ فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى الْكَهْفَ...، وهذا إسناده صحيح رجاله ثقات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة. ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سنة الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب اتباعها. اهـ (١)

(١) فوائد على الباب:

- من فوائد كون السورة مكونة من آيات:
- معرفة الوقف، فيتيسر للقارئ الوقوف في القرآن عند رأس الآية.
- أنه يعين على صحة الصلاة، فإن الإجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية.
- أن ذلك معين على حفظ القرآن وفهمه. [راجع "المدخل لدراسة القرآن" ص: (٢٧٩ - ٢٨٦)].
- * من فوائد كون القرآن مكون من سور:
- حسن الترتيب والتنوع، فتقسيم الكتاب إلى مراحل يعطي الكتاب رونقاً وجمالاً، بخلاف لو كان كل ما فيه سرداً.
- أنه معين على الحفظ، فيأخذ الحافظ سورة فيتقنها ثم يأخذ غيرها حتى يتم له حفظ كتاب الله.
- أنه منشط للقراءة، فكلما ختم سورة تولدت عنده همة لأن يختم غيرها وهكذا.
- أطول آية وكلمة وسورة وأقصر آية وكلمة وسورة:
- كما ذكر الزركشي وغيره:
- أن أقصر آية: ﴿طه﴾، ﴿يس﴾، ﴿حم﴾، ومن ذلك ﴿الضحى﴾، ﴿الفجر﴾، وأطول آية: آية الدين، [البقرة: ٢٨٢].
- وأقصر سورة: الكوثر، وأطول سورة: البقرة.
- وأقصر كلمة: حروف الجر ونحوها، وأطول كلمة: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، مكونة من أحد عشر حرفاً. [راجع "البرهان": (١ / ٢٥٢)].

- تقسيم السور بحسب الطول والقصر: تنقسم السور من حيث الطول والقصر إلى أربعة أقسام:
- السبع الطوال وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة، وسميت بالطوال لطولها، والطوال جمع طولى.
- المئون: وهي ما ولي السبع الطوال، سُمِّيت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.
- المثاني: وهي ما ولي المثين، كالعنكبوت والروم.
- المفصل: وهو ما ولي المثاني من قصار السور، سُمِّيَ مفصلاً لكثرة الفصول التي بين السور بسم الله الرحمن الرحيم.
- واختلف في تحديد أوله:**
- فمن العلماء من قال: أوله الجاثية.
- ومنهم من قال: أوله القتال أي محمد، وقال الماوردي: إنه قول الأكثرين.
- ومنهم من قال: أوله الحجرات.
- والصحيح: أن أوله (ق)، قال الماوردي في تفسيره: حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة.
- أقسام المفصل ثلاثة، طواله، وأوسطه، وقصاره.
- فطواله: من (ق) على الراجح إلى (عم) أو (البروج)، وأوسطه: من (عم) أو (البروج) إلى (الضحى) أو إلى (لم يكن)، وقصاره: من (الضحى) أو (لم يكن) إلى آخر القرآن. على خلاف في ذلك. [راجع البرهان للزركشي: (١/ ٢٤٥)].
- تنكيس الآيات:
- وذلك بأن يبتدئ القراءة بآخر سورة ثم يأتي بأولها.
- قال النووي **رحمَهُ اللهُ**: قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً مؤكداً، لأنه يذهب ببعض الإعجاز، ويزيل حكمة ترتيب الآي. اهـ [راجع "التبيان" للنووي (١/ ٩٩)].

كتابة القرآن وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي ﷺ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ، وقلة الكاتبين ووسائل

وقال ابن كثير رحمه الله: ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً آياته، فإن نكسه خطأ خطأً كبيراً. اهـ

مسألة: هل التسمية لأسماء سور القرآن اجتهادي أم توقيفي؟

اختلف فيه، والذي عليه أكثر أهل العلم أنه توقيفي:

قال السيوطي رحمه الله: هي مسماه باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ، وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك. اهـ [راجع "الإتقان" (١) / (١٤٩)].

ومن الأدلة على أنه توقيفي، ما جاء في الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه). [رواه البخاري برقم: (٥٠٠٨)].

فسماها سورة البقرة، دليل على أن أسماء سور القرآن أخذ من رسول الله ﷺ. وقد روى مسلم في "صحيحه"، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا الزهراوين، سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غيايتان، أو كأنهما غمامتين تحاجان عن صاحبهما» [رواه مسلم برقم: (٨٠٤)]. والأدلة في إثبات ذلك كثيرة، والله الحمد.

الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف^(١)، بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عشب النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكسر الأكتاف^(١)، وكان القراء عدداً كبيراً.

(١) فائدة: قد كتب القرآن كاملاً في عهد النبي ﷺ، لكنه لم يجمع في مصحف واحد، إنما كان مفرقاً عند الصحابة، هذا عنده جزء منه وذاك عنده جزء، وكان في أوراق وجلود وحجارة متفرقة، لم يجمع في مصحف واحد. قال الحافظ رحمه الله: كان القرآن مكتوباً في الصحف لكن كانت مفرقة فجمعها أبو بكر في مكان واحد. اهـ.

وقال: قد كان القرآن كله مكتوب في عهد النبي ﷺ لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب بسور. اهـ. [راجع "الفتح" برقم: (٤٩٨٦)].

تنبيه: لماذا لم يجمع النبي ﷺ القرآن في مصحف واحد؟

- لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ مفرقاً في بضع وعشرين سنة، فكان من الصعوبة بمكان أن يجمع في مصحف واحد.

- قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين بذلك. اهـ. [راجع "الفتح" حديث رقم: (٤٩٨٦)].

قال السيوطي رحمه الله: قَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّمَا لَمْ يَجْمَعْ الْقُرْآنُ فِي الْمَصْحَفِ لِمَا كَانَ يَتَرَقَّبُهُ مِنْ وَرُودِ نَاسِخٍ لِبَعْضِ أَحْكَامِهِ أَوْ تِلَاوَتِهِ فَلَمَّا انْقَضَى نَزْوُلُهُ بِوَفَاتِهِ أَهْلَهُمُ اللَّهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدِينَ ذَلِكَ وَفَاءً بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ بِضَمَانِ حِفْظِهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ فَكَانَ ابْتِدَاءُ ذَلِكَ عَلَى يَدِ الصَّدِيقِ بِمَشُورَةِ عُمَرَ. وَأَمَّا مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ..." الْحَدِيثَ، فَلَا يُنَافِي ذَلِكَ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي كِتَابَةِ مَخْصُوصَةٍ عَلَى صِفَةٍ

ففي "صحيح البخاري" عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سبعين رجلاً يقال لهم: القراء، فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوه، وفي الصحابة غيرهم كثير كالحلفاء الأربعة، وعبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم. (٢)

مَخْصُوصَةٌ وَقَدْ كَانَ الْقُرْآنُ كُتِبَ كُلُّهُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَكِنْ غَيْرُ مَجْمُوعٍ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَلَا مُرتَبِ السُّور. اهـ. [الإتقان في علوم القرآن] (١/ ٢٠٢).

(١) قال ابن حجر رحمته الله: الْعُسْبُ: بِضَمِّ الْمُهِمْلَتَيْنِ ثُمَّ مَوْحَدَةً جَمْعُ عَسِيبٍ وَهُوَ جَرِيدُ النَّخْلِ كَانُوا يَكْشِطُونَ الْخُوصَ وَيَكْتُبُونَ فِي الطَّرَفِ الْعَرِضِ، الرَّقَاعُ: جَمْعُ رُقْعَةٍ وَقَدْ تَكُونُ مِنْ جِلْدٍ أَوْ وَرَقٍ أَوْ كَاعِدٍ، وَاللَّخَافُ: بِكَسْرِ اللَّامِ ثُمَّ خَاءٍ مُعْجَمَةٌ خَفِيفَةٌ وَآخِرُهُ فَاءٌ جَمْعُ لُخْفَةٍ هِيَ الْحِجَارَةُ الرَّقَاقُ وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ صَفَائِحُ الْحِجَارَةِ الرَّقَاقُ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِيهَا عَرْضٌ وَدَقَّةٌ، وَالْأَكْتَاغُ: جَمْعُ كَتِفٍ وَهُوَ الْعَظْمُ الَّذِي لِلْبَعِيرِ أَوْ الشَّاةِ كَانُوا إِذَا جَفَّ كَتَبُوا فِيهِ. اهـ. [فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٤)]

(٢) وقد كان الحفاظ من الصحابة رضي الله عنهم كثير، ومما يدل على ذلك: (أنه قُتل في غزوة بئر معونة سبعون رجلاً من القراء، كما في صحيح البخاري من حديث أنس). [رواه البخاري برقم: (٤٠٩٠)].

وكذلك في غزوة اليمامة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه قُتل عدد كبير من القراء من الصحابة، كما في صحيح البخاري في قصة جمع زيد بن ثابت للقرآن. [رواه البخاري برقم: (٤٩٨٦)].
ويشكل على هذا: ما رواه البخاري عن أنس ت أنه قال: (لم يجمع القرآن من الصحابة إلا أربعة: كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد). وفي لفظ: (لم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد). [رواه البخاري برقم: (٥٠٠٣ - ٥٠٠٤)].

وقد وجهه أهل العلم:

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة. وسببه: أنه قتل في وقعة اليمامة عدد كبير من القراء منهم سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي "صحيح البخاري": أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنه بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعاً، فلم يزل عمر يراجع حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، قال: فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخاف وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها. رواه البخاري مطولاً. (١)

-
- أنه على اللفظ الأول لعله أراد من الأوس دون الخزرج والمهاجرين.
 - أو أنه لم يجمعه على جميع قراءاته غير هؤلاء الأربعة.
 - أو أنه لم يتلق القرآن كاملاً من في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا واسطة إلا الأربعة.
 - أن هؤلاء الذين اشتهروا بتعليمه فلذلك خصصهم به.
 - أن المقصود بجمعه كتابته كاملاً.
 - أو أن هذا في حسب علم أنس رضي الله عنه ، ويكون غيره قد حفظه وهو لا يعلم. [راجع "الفتح" تحت حديث رقم: (٥٠٠ - ٥٠٠٤)].

(١) كيفية جمع أبي بكر للقرآن:

جمعه في صحف، كل سورة في صحيفة أو صحف معينة مع عدم ترتيب للسور.

قال الحافظ رحمته الله : الفرق بين الصحف والمصحف، أن الصحف الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر وكانت سور مفرقة، كل سورة مرتبة بآياتها على حدة، لكن لم يرتب بعضها إثر بعض. اهـ [راجع "الفتح" عند حديث رقم (٤٩٨٦)].

وقصة جمع أبي بكر للقرآن: رواها البخاري برقم: (٤٩٨٦): فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر الصديق بعد مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عمر رضي الله عنه: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد رضي الله عنه: قال أبو بكر رضي الله عنه: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه.

و يستفاد من هذه القصة أمور:

- أن السبب في جمع الصحابة ب للقرآن هو خشية ضياعه بسبب موت القراء، وكان هذا من أعظم الأسباب في حفظ كتاب الله جل وعلا.

قال الحافظ رحمته الله : ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاءً للوعد الصادق لضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية، زادها الله شرفاً، وكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضي الله عنه . اهـ

- تورع أبو بكر رضي الله عنه في أن يتصرف في كتاب الله بشيء لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذا زيد بن ثابت ومدى فقه عمر رضي الله عنه .

قال الحافظ رحمته الله : قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولاً، ثم زيد بن ثابت ثانياً؛ لأنها لم يجدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعله، فكرها أن يحلا لأنفسهما محل من يزيد في احتياطه للدين على احتياط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذ لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة رجعا إليه. اهـ [راجع "الفتح" عند الحديث]. وقال الحافظ رحمته الله : قال الباقلاني: قد فهم عمر أن ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمعه لا دلالة فيه على المنع، ورجع إليه أبو بكر لما رأى وجه الإصابة في ذلك، وأنه ليس في المنقول ولا في المعقول ما ينافيه، وما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه، ثم تابعتها زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك. اهـ [راجع "الفتح" عند الحديث].

- فيه أن القرآن كان مكتوباً في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لذلك تتبعه من (العسب واللخاب) أي: من الأدوات التي يكتب فيها فإذا لم يجده مكتوباً أخذه من صدور الرجال أي من حفاظ الصحابة، لذلك قال: (حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري) أي: لم يجدها مكتوبة عند أحد من الصحابة، فشهد أبو خزيمة أنه سمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكتبت في آخر سورة براءة.

- في هذا فضيلة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : قال ابن كثير رحمته الله : وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ وَأَجَلِّ وَأَعْظَمَ مَا فَعَلَهُ الصَّدِيقُ، فَإِنَّهُ أَقَامَهُ اللَّهُ بَعْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مَقَامًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَهُ، قَاتَلَ الْأَعْدَاءَ مِنْ مَانِعِي الرِّكَاءِ، وَالْمُرْتَدِّينَ، وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ، وَنَفَذَ الْجَيْوشَ، وَبَعَثَ الْبُعُوثَ

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدوه من حسناته، حتى قال: علي **رحمته**: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله. (١)

وَالسَّرَّاءِ، وَرَدَّ الْأَمْرَ إِلَى نَصَابِهِ بَعْدَ الْخَوْفِ مِنْ تَفَرُّقِهِ وَذَهَابِهِ، وَجَمَعَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ مِنْ أَمَاكِنِهِ الْمُتَفَرِّقَةِ حَتَّى تَمَكَّنَ الْقَارِئُ مِنْ حِفْظِهِ كُلِّهِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ سِرِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فَجَمَعَ الصَّدِيقُ الْخَيْرَ وَكَفَّ الشُّرُورَ، **رحمته** وَأَرْضَاهُ. وَهَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ مِنْهُمْ وَابْنُ زَيْدٍ وَقَبِيصَةُ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّيِّدِ الْكَبِيرِ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، **رحمته**، أَنَّهُ قَالَ: أَعْظَمُ النَّاسِ أَجْرًا فِي الْمَصَاحِفِ أَبُو بَكْرٍ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. اهـ. [مقدمة تفسير ابن كثير " (١ / ٢٥)].

- فضيلة ظاهرة لعمر بن الخطاب **رحمته**: حيث كان هو الذي أشار بهذا الأمر العظيم والخير الجليل أولاً، فله من هذا الخير أوفر نصيب. لذلك قال ابن كثير **رحمته**: فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر **رحمتهما** من أكبر المصالح الدينية وأعظمها من حفظهما كتاب الله في الصحف لئلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله **صلى الله عليه وسلم**. اهـ. [راجع " فضائل القرآن" في مقدمة تفسير ابن كثير].

- فضيلة ظاهرة لزيد بن ثابت **رحمته**: حيث اجتمعت فيه خصال من الخير، فهو من كتّاب الوحي وحفّاظ القرآن وذو عقل وأمانة.

قال الحافظ **رحمته**: وهذه الصفات قد توجد في غيره لكن متفرقة. اهـ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٧ / ٢٤٨)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٢٨٠)، وابن أبي داود في "المصاحف" (ص: ٤٩) واللفظ له من طرق: عَنِ السُّدِّيِّ، عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، يَقُولُ: «أَعْظَمُ النَّاسِ أَجْرًا فِي الْمَصَاحِفِ أَبُو بَكْرٍ فَإِنَّهُ أَوَّلَ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين^(١)، وسببه اختلاف الناس في القراءة^(١) بحسب اختلاف الصحف

اللَّوْحَيْنِ». وأخرجه ابن أبي داود أيضًا وهولفظ ابن أبي شيبة: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ». وقد صحح الأثران كثير كما تقدم، وقد حسنه الحافظ في "الفتح" (١٢/٩)، والسيوطي في "الإتقان" (١/٢٤٠)، وهو الراجح للخلاف في السدي فالأثر حسن.

قال الحافظ رحمته الله: قد تسوّل لبعض الروافض أن يتوجه الاعتراض على أبي بكر بما فعله من جمع القرآن في المصحف فقال: كيف جاز أن يفعل شيئاً لم يفعله الرسول صلّى الله عليه وآله؟ والجواب: أنه لم يفعله إلا بطريق الاجتهاد السائغ الناشئ عن النصح منه لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وقد كان النبي صلّى الله عليه وآله أذن بكتابة القرآن ونص أن يكتب معه غيره، فلم يأمر أبوبكر بكتابة ما كان مكتوباً...، وإذا تأمل المنصف ما فعله أبوبكر رضي الله عنه من ذلك جزم بأنه يعد في فضائله وينوه بعظيم منقبته لثبوت قوله صلّى الله عليه وآله: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها»، فما جمع القرآن أحد بعده إلا وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة. اهـ. [راجع "الفتح" عند شرح الحديث].

قال الزركشي رحمته الله: وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ اشتهَرَ أَنَّ عُثْمَانَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ الْمُصَاحِفَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ لِمَا بَيَّنَّاهُ، بَلْ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَهَا فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ الصَّدِيقُ، ثُمَّ أَمَرَ عُثْمَانُ حِينَ خَافَ الْاِخْتِلَافَ فِي الْقِرَاءَةِ بِتَحْوِيلِهِ مِنْهَا إِلَى الْمُصَاحِفِ. اهـ. "البرهان في علوم القرآن" (١/٢٣٥)، وسيأتي الفرق بين جمع أبي بكر رضي الله عنه وجمع عثمان رضي الله عنه للقرآن.

(١) في السنين الأولى من خلافة عثمان: قال ابن حجر رحمته الله: وَكَانَتْ خِلَافَةُ عُثْمَانَ بَعْدَ قَتْلِ عُمَرَ، وَكَانَ قَتْلُ عُمَرَ فِي أَوَاخِرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ. [راجع "فتح الباري": (١٧/٩)].

(١) والسبب في اختلافهم أن القرآن نزل على سبعة أحرف، فكان بعضهم يقرأ بهذا الحرف، وبعضهم يقرأ بحرف آخر؛ فبسبب جهل بعضهم بالأحرف كان ينكر على غيره ممن يقرأ بحرف آخر ويظنه تحريف للقرآن. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف». [رواه البخاري: (٤٩٩١) ومسلم: (١٨٩٩)].

وروى مسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن جبريل أتاه فقال له: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ على حرفين فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، فلم يزل جبريل يتردد عليه والرسول صلى الله عليه وسلم يطلب الزيادة إلى أن قال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيا حرف قد قرأوا عليه فقد أصابوا». [رواه مسلم برقم: (١٩٠٣)].

وقد اختلف في تحديد الأحرف السبعة إلى أقوال كثيرة أرجحها:

إن الأحرف السبعة: سبع أوجه من لغات العرب متفقة في المعنى مختلفة في اللفظ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، جاء أنه كان يقرأ: (فامضوا إلى ذكر الله)، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظُرُونَا﴾ [الحديد: ١٣]، جاء: (للذين آمنوا أمهلونا)، وجاء: (للذين آمنوا أأرونا).

وهذا قول جمهور أهل العلم في تفسير السبعة الأحرف، منهم سفيان بن عيينة وابن جرير ودافع عنه دفاعاً حاراً في مقدمة تفسيره، والطحاوي وابن وهب واختاره القرطبي، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء، وهو قول أكثر المتأخرين. [راجع البحث من "فتح الباري" عند حديث رقم: (٤٩٩٢) و"شرح النووي" لمسلم عند حديث رقم: (١٨٩٩) و"الإتقان": (١) / ١٣٠ - وما بعدها].

والحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف:

التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي "صحيح البخاري" أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم على عثمان رضي الله عنه من فتح أرمينية وأذربيجان^(١)، وقد أفرغه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين

- التوسعة والتيسير على الأمة، لأن العربي من غير قريش المجبول على لغته، لو كلف قراءته بلغة قريش لتعسر عليه التحول، فأباح الله له أن يقرأ بلغته التي نزل بها القرآن.

- أن العرب كان فيهم حمية، فخشى أن يكون هناك إعراض منهم عن القرآن، بسبب أنه ليس بلغتهم، فمن رحمة الله ونعمته على العرب أنه أنزله على لغاتهم، حتى يكون ذلك أسرع في استجابتهم لشرع الله والإيمان به.

- أن ذلك معين على حفظه وفهمه لجميع العرب باختلاف أنواعهم.

- بيان إعجاز القرآن حيث خاطب كل قبائل العرب بلغاتهم بأفصح عبارة وأعظم بيان مع اتفاق المعاني وتعدد الألفاظ. [راجع المصادر السابقة].

فبعد أن تبين أن القرآن نزل على سبعة أحرف، لحكم عظيمة جليلة، جاء عثمان رضي الله عنه، وجمع الناس على حرف واحد وهو حرف قريش، وحرّق ما عدا ذلك من الأحرف التي بلغات العرب الأخرى.

(١) أرمينية بكسر الهمزة - وفتح - وسكون الراء وكسر الميم بعدها ياء مثناة خفيفة ساكنة ونون مكسورة، وياء خفيفة مفتوحة، وقد تثقل كما قال ياقوت وهو إقليم كبير يشتمل على بلدان كثيرة أكبرها أرمينية، وأذربيجان بفتح الهمزة وسكون الذال وفتح الراء وكسر الباء بعدها ياء مخففة ثم جيم مفتوحة ممدودة. قال الحموي: اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال. اهـ. [معجم البلدان: (١) / ١٦٠]

أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اليهود والنصارى، فأرسل عثمان رضي الله عنه إلى حفصة رضي الله عنها أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم

قال أبوشهبة: هما إقليمان يعرفان بالقوقاز، وهما الآن تحت الحكم الروسي. راجع المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٢٧٤). وقال النووي: (أَذْرَبِجَان)، هِيَ إِقْلِيمٌ مَعْرُوفٌ وَرَاءَ الْعِرَاقِ. اهـ شرح مسلم: (١٤ / ٤٥). قال ابن حجر في (أَذْرَبِجَان): بَلَدٌ كَبِيرٌ مِنْ نَوَاحِي جِبَالِ الْعِرَاقِ غَرْبِي وَهِيَ الْآنَ تَبْرِيزُ وَقَصَبَاتُهَا مِنْ مَدَنِ إِيرَانَ وَهِيَ تَلِي أَرْمِينِيَّةٍ مِنْ جِهَةِ غَرْبِهَا. اهـ "فتح الباري" (٩ / ١٧)، وأَذْرَبِجَان، معناها: بيت النار بالفارسية، أو خازن النار.

نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير^(١)، وسعيد بن العاص^(٢)،

(١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي، الأسدي رحمته الله أبوه الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عمته صفية، وأمه أسماء بنت الصديق، ذات النطاقين كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة، ولما ولد فرح المسلمون وكبروا؛ لأن اليهود زعموا أنهم سحروا المهاجرين فلا يولد لهم أحد، ولما ولد جاءت به أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحنكه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماه عبد الله، ودعا له بخير، وقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع أو ثمان سنين، فبايع النبي صلى الله عليه وسلم وكان أشبه الناس بجده الصديق، وهو أحد العبادلة الأربعة الذين اشتهروا بالعلم، ورواية الأحاديث، وعنوا بحفظ القرآن، وأحد شجعان العرب، وقد دانت له معظم الأقطار الإسلامية بعد موت يزيد بن معاوية، وولي الخلافة ثم قتل شهيدا أثناء حصار الحجاج له بمكة سنة ثلاث وسبعين. [راجع الإصابة: (٧٨/٤)، تهذيب الكمال: (١٤/٥٠٨)].

(٢) هو الصحابي الجليل سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية القرشي رحمته الله، الأموي، أبو عثمان، قال ابن أبي حاتم عن أبيه رحمته الله : له صحبة، وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله : كان له يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم تسع سنين وقتل أبوه يوم بدر، قال ابن سعد: وعدوه لذلك في الصحابة، وحديثه عن عثمان وعائشة في "صحيح مسلم"، وكان من فصحاء قريش ولذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة المصاحف قالوا فيه: إن عريية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص؛ لأنه كان أشبه الصحابة لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ولي إمارة الكوفة، وغزا طبرستان ففتحها، وغزا جرجان، وكان حليبا وقورا، مشهورا بالكرم والبر، وكان معاوية رحمته الله يقول: لكل قوم كريم، وكريمننا سعيد، وقد ولاه معاوية

وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(١) فنسخوها في المصاحف^(٢). وكان زيد بن ثابت أنصاريًا والثلاثة قرشيين - وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا

رحمته إمامة المدينة، مات بقصره بالعقيق. توفي سنة (٥٨هـ) على خلاف. [راجع الطبقات الكبرى: (٥/ ٣٠)، الإصابة: (٢/ ٤٧)، تهذيب التهذيب (٤/ ٤٨)].

(١) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي، قال ابن حبان: ولد في زمن النبي **ﷺ**، ولم يسمع منه، ثم ذكره في ثقات التابعين، وما قيل من أنه كان ابن عشر في حياة النبي **ﷺ** هو وهم، مات أبوه وهو يجاهد في الشام في طاعون عمواس، فتزوج عمر **رحمته** أمه، فنشأ في حجره، وتزوج بنت عثمان **رحمته**، وقد ذكره البغوي والطبراني في الصحابة، وذكره البخاري وأبو حاتم في التابعين، كان من أشرف قريش وابنه أبو بكر أحد الفقهاء السبعة توفي سنة (٤٣هـ) الإصابة: (٣/ ٦٦)، تهذيب التهذيب: (٦/ ١٥٦).

(٢) قد روى ابن أبي داود **رحمته** في المصاحف: (ص: ١٠٤): عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ أَفْلَحَ قَالَ: (لَمَّا أَرَادَ عُثْمَانُ أَنْ يَكْتُبَ الْمُصَاحِفَ، جَمَعَ لَهُ اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ). وسنده صحيح.

قال ابن حجر **رحمته**: عند بن أبي داود من طريق محمد بن سيرين قال جمع عثمان اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار. ووقع من تسمية بقيّة من كتب أو أملى عند بن أبي داود مقررًا جماعة منهم مالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس، ومنهم كثير بن أفلح كما تقدّم ومنهم أبي بن كعب كما ذكرنا، ومنهم أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس فهو لاء تسعة عرفنا تسميتهم من الإثني عشر، وكان ابتداء الأمر كان لزيد وسعيد للمعنى المذكور فيهما في رواية مضعب ثم احتاجوا إلى من يساعد في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى

اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة (١)، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. (٢)

الْأَفَاقِ فَأَصَافُوا إِلَى زَيْدٍ مَنْ ذَكَرُ ثُمَّ اسْتَظْهَرُوا بِأَبِي بَنِي كَعْبٍ فِي الْإِمْلَاءِ. اهـ [فتح الباري لابن حجر: (١٩ / ٩)].

(١) قال ابن كثير رحمته الله ثم إن عثمان رضي الله عنه ردَّ الصحف إلى حفصة رضي الله عنها، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها، فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها؛ لئلا يكون فيها شيء يخالف المصاحف الأئمة التي نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفاً إلى مكة، ومصحفاً إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفاً. اهـ فضائل القرآن لابن كثير: (ص: ٧٧)، وقد أخرج الأثر ابن أبي داود في "المصاحف" (ص: ٥٧ ٩٣٩٤) بإسناد صحيح من طريق مالك، عن ابن شهاب، عن سالم، وخارجة...

(٢) وقصة جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد رواها البخاري في صحيحه برقم: (٤٩٨٧)، ويستفاد منها أمور:

- أن عثمان بن عفان رضي الله عنه هو أول من جمع القرآن في مصحف مرتب السور على حرف واحد.

- أن الحكمة من كون القرآن على سبعة أحرف قد زالت، بل قد أصبح ذلك سبباً للفرقة والاختلاف.

قال القرطبي رحمته الله: وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان، واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبههم...، فاختلفوا

وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا. اهـ [مقدمة تفسير القرطبي (ص: ١٢٦)].

- أن القرآن كتب على حرف واحد ولغة واحدة وهي لغة قريش، وهذا مأخوذ من قول عثمان **جهلته**: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم).

قال السيوطي: قال ابن التين ...، اقتصر عثمان من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً على أنه نزل بلغتهم. اهـ [راجع "الإتقان": (١ / ١٧٠)].

- أنه أرسل إلى كل ناحية بمصحف:

وقد اختلف في عدد المصاحف الذي أرسلها عثمان **جهلته** إلى أقوال منها:

(أ) أنها أربعة: قال القرطبي **رحمته الله** في مقدمة تفسيره: (ص: ١٣٠): ونسخ منها عثمان نسخاً قليل سبعة وقليل أربعة وهو الأكثر. اهـ ولعله لم يحسب المصحف الذي أبقاه في المدينة.

(ب) أنها خمسة: قال الحافظ **رحمته الله**: المشهور أنها خمسة. اهـ

(ج) أنها سبعة: فقد أخرج ابن أبي داود **رحمته الله** في (المصاحف ص: ١٣٣) قال: سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيَّ قَالَ: «لَمَّا كَتَبَ عُثْمَانُ الْمُصَاحِفَ حِينَ جَمَعَ الْقُرْآنَ، كَتَبَ سَبْعَةَ مَصَاحِفَ، فَبَعَثَ وَاحِدًا إِلَى مَكَّةَ، وَآخَرَ إِلَى الشَّامِ، وَآخَرَ إِلَى الْيَمَنِ، وَآخَرَ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، وَآخَرَ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَآخَرَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَحَبَسَ بِالْمَدِينَةِ وَاحِدًا». اهـ، وراجع "الفتح" عند الحديث، و أبو حاتم السجستاني إمام لكنه لم يسنده إلى عثمان **جهلته**.

والعلم عند الله في عددها...

- أنه حرق ما عدا ذلك من المصاحف التي تحتوي على قرآن ليس على حرف قريش.

- أن الأحرف الستة غير الذي كتبه عثمان قد حُرقت فلا سبيل إلى الوصول إليها، قال ابن جرير **رحمته الله**: عزم عثمان **جهلته** على كل من كان عنده مصحف مخالف للمصحف الذي جمعهم عليه أن يحرقه، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فعل ذلك فيه

الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم إمامها العادل في تركها طاعةً منها له،، حتى درست من الأمة معرفتها ونقضت آثارها، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها. اهـ. [راجع "تفسير ابن جرير" (١ / ٦٤-٦٥)].

- أن في ذلك دليل على جواز تحريق المصاحف وغيرها من كتب العلم التي فيها ذكر الله. كما سيأتي.

- أن القراءات السبع الموجودة ليست هي الأحرف السبعة التي نزل القرآن بها، وإنما هي على حرف قریش مع بقايا الأحرف السبعة التي وافقت المصحف العثماني في الرسم. قال الحافظ رحمته الله: قَالَ أَبُو شَامَةَ ظَنُّ قَوْمٌ أَنَّ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعَ الْمَوْجُودَةَ الْآنَ هِيَ الَّتِي أُرِيدَتْ فِي الْحَدِيثِ وَهُوَ خِلَافُ إِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً وَإِنَّمَا يَظُنُّ ذَلِكَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَهْلِ. اهـ. وقال الحافظ رحمته الله: وَقَالَ مَكِّي بْنُ أَبِي طَالِبٍ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ الَّتِي يُقْرَأُ بِهَا الْيَوْمَ وَصَحَّتْ رَوَايَاتُهَا عَنِ الْأَثَمَةِ جُزْءٌ مِنَ الْأَحْرِفِ السَّبْعَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ ثُمَّ سَاقَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ قَالَ وَأَمَّا مَنْ ظَنَّ أَنَّ قِرَاءَةً هَؤُلَاءِ الْقُرَّاءِ كَنَافِعٍ وَعَاصِمٍ هِيَ الْأَحْرِفُ السَّبْعَةُ الَّتِي فِي الْحَدِيثِ فَقَدْ غَلِطَ غَلْطًا عَظِيمًا. اهـ. "الفتح" عند حديث رقم: (٤٩٩٢).

فائدة: السبب في اختلاف القراءات مع أنها على حرف واحد؛ لأن عثمان رضي الله عنه كتب المصحف على طريقة يشمل فيها جملة من الأحرف والقراءات الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن ذلك:

- أنه كتب بغير نقاط: فكان ذلك سبباً لأن يجمع أكثر قدر ممكن مما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم بمصحف واحد.

مثال ذلك: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢]، قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر وحفص بالتاء، والباقون بالياء: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]، هكذا عند الأكثر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء: ﴿ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، بالزاي قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون بالراء المهملة ﴿نُنْشِزُهَا﴾.

- أنه كتب بغير شكل: فيشمل ما كان مشدداً في قراءة وما لم يكن مشدداً في غيرها، ويشمل الكلمة التي جاءت بالرفع في قراءة، و النصب والجر والسكون في قراءة أخرى ونحو ذلك.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ [المتحنة: ١٠]، قرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الميم وتشديد السين ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾، والباقيون بإسكان الميم وتخفيف السين.

وأمثلة الثاني كثيرة جداً في القراءات، منها:

قوله تعالى: ﴿وَدَّ﴾ [نوح: ٢٣]، قرأ الأكثر بفتح الواو، وقرأ نافع وجابر بضم الواو ﴿وُدَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ﴾ [المدثر: ٥]، قرأ أبو جعفر وحفص ويعقوب بفتح الراء والباقيون بالكسر: (والرَّجْزَ).

- إن كانت الكلمة عارية من النقط والشكل تكتب على طريقة تجمع ما جاء فيها من قراءات: مثال ذلك: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، كتبت هكذا في المصحف حتى تشمل القراءة بإثبات الألف بعد الميم ﴿مَالِكِ﴾ وهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب، وقرأ الباقون: ﴿مَلِكِ﴾ بغير ألف. [راجع للمزيد كتب القراءات].

وغير ذلك مما يدل على دقة الصحابة في الكتابة، و عظم براعتهم وتفننهم فيها، حتى كتبوا المصحف بطريقة تجمع كثير من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ.

قال الحافظ رحمه الله: قَالَ بَنُ أَبِي هِشَامٍ إِنَّ السَّبَبَ فِي اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ السَّعْيَ وَغَيْرَهَا أَنَّ الْجِهَاتِ الَّتِي وُجِّهَتْ إِلَيْهَا الْمُصَاحِفُ كَانَ بَيْنَهَا مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ حَمَلَ عَنْهُ أَهْلُ تِلْكَ الْجِهَةِ وَكَانَتِ الْمُصَاحِفُ خَالِيَةً مِنَ النَّقْطِ وَالشَّكْلِ قَالَ فَتَبَتِ أَهْلُ كُلِّ نَاحِيَةٍ عَلَى مَا كَانُوا تَلْقَوُهُ سَمَاعًا عَنِ الصَّحَابَةِ بِشَرْطِ مُوَافَقَةِ الْخَطِّ وَتَرَكُوا مَا يُخَالَفُ الْخَطَّ امْتِثَالًا لِأَمْرِ عُثْمَانَ الَّذِي وَافَقَهُ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ لَمَّا رَأَوْا فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ لِلْقُرْآنِ، فَمِنْ ثَمَّ نَشَأَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ قُرَّاءِ

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روى ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه أنه قال: والله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا، فنعم ما رأيت. (١)

الْأَمْصَارِ مَعَ كَوْنِهِمْ مُتَمَسِّكِينَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ. اهـ [راجع "الفتح" عند حديث رقم (٤٩٩٢)].

- إذا كانت الكلمة لا يمكن أن تكتب بطريقة تُقرأ فيها على أكثر من وجه، فإنها تكتب في مصحف بوجه، ومصحف آخر بوجه آخر: مثلاً: ﴿وَصَى﴾، ﴿أَوْصَى﴾، ومثل: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠]، و﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى غير ذلك فإنها كتبت في بعض المصاحف بلفظ وفي بعضها بلفظ آخر. [راجع "المدخل" لأبي شهبه: (ص: ٢٥٣)].
فلهذه الأسباب وغيرها تنوعت القراءات وحصل فيها بعض الاختلاف.

(١) راجع "المصاحف" لابن أبي داود رقم (٢٢) عن سويد بن غفلة عن علي: وسنده صحيح وقد صححه الحافظ في "الفتح" كما سيأتي، والسيوطي في "الإتقان": (١/ ٢١٠).
قال القرطبي رحمته الله: وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمعه بما صح، وثبت في القراءات المشهورة عن النبي صلوات الله وسلاماته عليه واطراح ما سواها. اهـ [راجع "مقدمة تفسير القرطبي" (ص: ١٢٧)].

قال الحافظ رحمته الله: وَقَدْ جَاءَ عَنْ عُثْمَانَ أَنَّهُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ، فَأُخْرِجَ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ مِنْ طَرِيقِ سُؤَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ... ثم ذكر أثر علي السابق. راجع "الفتح" عند رقم (٤٩٨٧).

وقال مصعب بن سعد: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد^(١)، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مكملة لجمع خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنه (٢).

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنه: أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر رضي الله عنه تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

(١) راجع كتاب (المصاحف) أثر رقم "٤٠" (ص: ٦٧)، من طريق شُعبه، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: "أَدْرَكْتُ النَّاسَ مُتَوَافِرِينَ حِينَ حَرَّقَ عُثْمَانُ الْمُصَاحِفَ، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ، وَقَالَ: لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ" وأبو إسحاق هو السبيعي ولا تضر عننته لأنه من رواية شعبه عنه. وقد صححه ابن كثير كما في مقدمة تفسيره.

قال ابن بطال رحم الله: في أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى وأن ذلك إكراماً لها وصيانة عن الوطء بالأقدام وطرحها في ضياع من الأرض. اهـ [راجع "الفتح" عند الحديث].

(٢) قال ابن كثير رحم الله: هذا أيضاً من مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإن الشيوخ سبقوا إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، وهو جمع الناس على قراءة واحدة لئلا يختلفوا في القرآن ووافقه على ذلك جميع الصحابة. اهـ [راجع "فضائل القرآن" في مقدمة تفسيره].

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات. (١)

(١) الفوارق بين جمع أبي بكر رضي الله عنه للمصحف وجمع عثمان رضي الله عنه:

- أن أبا بكر رضي الله عنه كان السبب في جمعه القرآن الخشية من ضياع شيء منه بسبب موت القراء، أما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه كان الباعث له قطع الخلاف وجمع المسلمين وعدم تفريقهم.

- أن أبا بكر رضي الله عنه جمع القرآن بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، أما عثمان رضي الله عنه فقد جمع الناس على حرف واحد وهو حرف قريش وأحرق ما عدا ذلك.

- أن أبا بكر رضي الله عنه جمع القرآن في صحف مرتب الآيات في السور، لكنه لم يرتب سورته إنما كانت كل سورة في صحف على حدة، أما عثمان رضي الله عنه فقد جمع القرآن في مصحف واحد ورتب سورته.

قال ابن حجر رحمه الله: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الصُّحُفِ وَالْمُصْحَفِ أَنَّ الصُّحُفَ الْأَوْرَاقَ الْمُجَرَّدَةَ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَكَانَتْ سُورًا مُفَرَّقَةً كُلُّ سُورَةٍ مُرْتَبَةً بِآيَاتِهَا عَلَى حِدَةٍ لَكِنْ لَمْ يُرْتَبْ بَعْضُهَا إِثْرَ بَعْضٍ فَلَمَّا نُسِخَتْ وَرُتِبَ بَعْضُهَا إِثْرَ بَعْضٍ صَارَتْ مُصْحَفًا. اهـ [فتح الباري (٩/ ١٨)].

- أن أبا بكر رضي الله عنه لم يلزم الناس بالأخذ بما في صحفه وترك ما بأيديهم من الصحف، أما عثمان رضي الله عنه فقد ألزم الناس بالأخذ بما في مصحفه، وإحراق ما سواه مما في أيديهم، وإن كانوا أخذوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. [راجع "الإتقان" (١/ ٢١٠)، و"مباحث في علوم القرآن للقطان" (ص: ١٣٣)].

تنبيه: قد شق على ابن مسعود أنه صرف عن كتابة المصحف مع أنه من أعلم الصحابة به:

قال ابن حجر رحمته الله : وقد شقَّ على ابن مسعودٍ صَرْفُهُ عَنْ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ حَتَّى قَالَ مَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَرِهَ لَزِيدَ بْنِ ثَابِتٍ نَسْخَ الْمُصْحَفِ، وقال: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ: أُعْزِلْ عَنْ نَسْخِ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ وَيَتَوَلَّاهَا رَجُلٌ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ يُرِيدُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ. وأخرج ابن أبي داودَ مِنْ طَرِيقٍ: حُمَيْرُ بْنُ مَالِكٍ -بِالْحَقَاءِ مَصْغَر- سَمِعَتْ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم سَبْعِينَ سُورَةً، وَإِنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ لَصَبِيٌّ مِنَ الصَّبِيَّانِ، وَمِنْ طَرِيقٍ أَبِي وَائِلٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً. وَمِنْ طَرِيقٍ زُرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْهُ: مِثْلُهُ. وَزَادَ: وَإِنَّ لَزِيدَ بْنَ ثَابِتٍ ذَوَابْتَيْنِ. [راجع "الفتح" عند الحديث، وهو عند الترمذي، راجع "صحيح الترمذي" للألباني: (٣١٠٤)، وقال: صحيح، وهو عند ابن أبي داود: (ص: ٧٤) فمابعدهما] من طرق صحيحة عن ابن مسعود. بِالْفَاظِ كَمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ. قَالَ الْحَافِظُ غ: وَالْعُدْرُ لِعُثْمَانَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ فَعَلَهُ بِالْمَدِينَةِ وَعَبَدُ اللَّهِ بِالْكُوفَةِ وَلَمْ يُؤَخَّرْ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِ وَيَخْضَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّ عُثْمَانَ إِنَّمَا أَرَادَ نَسْخَ الصُّحُفِ الَّتِي كَانَتْ جُمِعَتْ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَأَنْ يَجْعَلَهَا مُصْحَفًا وَاحِدًا، وَكَانَ الَّذِي نَسَخَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ هُوَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ كَمَا تَقَدَّمَ لِكُونِهِ، كَانَ كَاتِبَ الْوَحْيِ، فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ أَوْلِيَّةٌ لَيْسَتْ لغيره. [راجع "الفتح" عند حديث رقم: (٤٩٨٧)].

قال القرطبي رحمته الله : إن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبدالله إذ وعاه كله ورسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم حي، والذي حفظ منه عبد الله نيفا وسبعين سورة، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلم، فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم حي أولى بجمع المصحف وأحف بالإثارة والاختيار. اهـ. [راجع "مقدمة تفسيره" (ص: ١٢٩)]، لذلك أبى عبد الله بن مسعود رحمته الله أن يحرق مصحفه، وأمر أهل الكوفة أن يغلّو مصاحفهم - أي: يمسكوها ولا يحرقوها - وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، يريد أن يلقوا الله بها. [راجع "صحيح الترمذي" للألباني (٣١٠٤)، وقال صحيح، وراجع المصاحف لابن أبي داود]، ثم رجع عبدالله بن مسعود إلى الأخذ بما رآه عثمان، وعلم أن المصلحة في ذلك.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشو البغضاء، والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقاً عليه بين المسلمين متواتراً بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبت به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين، فله الحمد، ربّ السماوات ورب الأرض رب العالمين.

قال القرطبي رحمّه الله : ولا شك في أنه رحمّه الله قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم. اهـ

[راجع "مقدمة تفسيره" (ص: ١٢٩)].

التفسير

التفسير لغة: من الفسر، وهو: الكشف عن المغطى.

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم. (١)

(١) التفسير لغةً: اختلف في أصل اشتقاقه، والأشهر أنه: من الفسر: وهو البيان والكشف.

وعند تتبع معاني كلمة التفسير تجد أنها تدور على الكشف والبيان.

فيقال: فُسِّرَ الكلام، أي أبان معناه وأظهره.

ويقال: فُسِّرَ عن ذراعيه: أي: كشف عنها. [راجع "العين" للخليل، و"تهذيب اللغة" للأزهري].

التفسير اصطلاحاً: عرف بتعاريف كثيرة من أوجزها وأحسنها تعريف الشيخ العثيمين رحمته الله ومن هذه التعاريف أيضاً:

قال الزركشي رحمته الله: «التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلوات الله عليه وآله وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه» اهـ [«البرهان» (١/١٣)].

وقال الجرجاني رحمته الله: «التفسير في الأصل هو الكشف والإظهار، وفي الشرع: توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدل عليه دلالة واضحة» راجع (التعريفات) للجرجاني.

مسألة: الفرق بين التفسير والتأويل:

اختلف في الفرق بينهما إلى أقوال كثيرة، أشهرها:

- **الأول:** أنها بمعنى واحد قاله أبو عبيد وطائفة وهو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: فَأَمَّا قَدَمَاءُ الْمُفَسِّرِينَ فَلَفْظُ التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ: الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ. أَيِ فِي تَفْسِيرِهَا. اهـ [مجموع الفتاوى:

[١٧ / ٣٦٧]

وتعلم التفسير واجب^(١) لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]^(٢)، وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها.

- **الثاني:** أن التفسير: القطع أن معنى الآية كذا، وأما التأويل: فهو ترجيح أحد الاحتمالات.. قاله الماتريدي.

- **الثالث:** أن التفسير متعلق بالرواية بحيث يكون بيان معنى الآية عن طريق الآثار لا الاجتهاد، وأما التأويل فمتعلق بالدراية بحيث يكون بيان معنى الآية عن طريق الاجتهاد والاستنباط. [راجع بيان تلبس الجهمية لشيخ الإسلام: (٢٧٦/٨)، البرهان: (١٤٩/٢)، والإتقان: (٢ / ٤٨٩-٤٩١) والتفسير والمفسرون لمحمد الذهبي (معاصر) (ص: ١٩ - ٢٢)].

(١) معرفة تفسير القرآن بأكمله من فروض الكفايات، لكن بعض آيات القرآن التي لايسع المسلم الجهل بها، يجب فهم معانيها على كل مسلم ومسلمة:
قال شيخ الإسلام رحمته الله في ["مجموع الفتاوى" (١٧ / ٤٤٠)]: مَعْرِفَةُ مَعَانِي الْجَمِيعِ فَرَضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مَعْرِفَةُ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ. اهـ
قال السيوطي رحمته الله في "الإتقان" (٤ / ١٩٩): قَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ التَّفْسِيرَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ وَأَجَلُ الْعُلُومِ الثَّلَاثَةِ الشَّرْعِيَّةِ. اهـ

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله في "شرحه": أما ما لا يسوغ جهله فهو واجب عيني مثل:
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] و﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهلم جرا، وما زاد على ذلك فإنه فرض كفاية. اهـ باختصار.

(٢) قال القرطبي في "مقدمة تفسيره" (١ / ٢): فَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِحِفْظِ كِتَابِهِ أَنْ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَيَتَدَبَّرَ حَقَائِقَ عِبَارَتِهِ، وَيَتَفَهَّمَ عَجَائِيزَهُ، وَيَتَبَيَّنَ غَرَائِبَهُ، وقال عنده

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فانت
الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها.

ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه. (١)

ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون
القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.
وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه
ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا
يعرف معناه غير ممكن. قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمته الله (٢): حدثنا الذي كانوا

الآية: (١٥ / ١٩٢): وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّرْتِيلَ
أَفْضَلُ مِنَ الْهَدْءِ، إِذْ لَا يَصِحُّ التَّدَبُّرُ مَعَ الْهَدْءِ. اهـ

(١) قال شيخ الإسلام رحمته الله في "بيان تلبيس الجهمية" (٨ / ٢٣١): ومعلوم أن تدبر آياته
وتذكر أولي الأبواب إنما يكون مع إمكان فهمه ومعرفة معناه وأما بدون ذلك فهو
متعذر. اهـ

فائدة: قال شيخ الإسلام رحمته الله في "بيان تلبيس الجهمية" (٨ / ٢٧٥): ثم التلاوة: تكون
بالعلم والحفظ والدرس، والفهم: يكون بصدق النية وتعظيم الحرمة وطيب الطعمة. اهـ

(٢) قال الذهبي رحمته الله في "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٤ / ٢٦٧): أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ
السُّلَمِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَبِيبٍ: مُقَرَّرُ الْكُوفَةِ، الْإِمَامُ، الْعَلَمُ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَبِيبٍ بْنِ رُبَيْعَةَ
الْكُوفِيِّ. مِنْ أَوْلَادِ الصَّحَابَةِ، مَوْلَدُهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صلوات الله وسلامه عليه يُقَالُ: تُوِّفِيَ سَنَةٌ أَرْبَعٌ وَسَبْعِينَ. اهـ

قال الجزري رحمته الله في "النشر القراءات العشر" (١ / ٣): وَكَانَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ
السُّلَمِيُّ التَّائِعِيُّ الْجَلِيلُ يَقُولُ لَمَّا يَرَوِي هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عُثْمَانَ "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ
وَعَلَّمَهُ": هَذَا الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا، يُشِيرُ إِلَى كَوْنِهِ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالْكُوفَةِ

يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل^(١)، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو

يَعْلَمُ الْقُرْآنَ وَيُقرئُهُ مَعَ جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَكَثْرَةِ عِلْمِهِ، وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ، وَيَبْقَى يُقرئُ النَّاسَ بِجَمَاعٍ الْكُوفَةِ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَعَلَيْهِ قَرَأَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهما السلام. اهـ

(١) قال ابن القيم رحمته الله في "مختصر الصواعق" (ص: ٥٣٥): فَالصَّحَابَةُ أَخَذُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَلْفَافَ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ، بَلْ كَانَتْ عِنَايَتُهُمْ بِأَخْذِ الْمَعَانِي مِنْ عِنَايَتِهِمْ بِالْأَلْفَافِ، يَأْخُذُونَ الْمَعَانِيَ أَوَّلًا، ثُمَّ يَأْخُذُونَ الْأَلْفَافَ لِيَضْبُطُوا بِهَا الْمَعَانِيَ حَتَّى لَا تَشَدَّ عَنْهُمْ. اهـ

(٢) (حسن) في إسناده عطاء بن السائب وثقه جمع وضعفه بعضهم بسبب اختلاطه في آخره قال عنه الحافظ في التريب: صدوق اختلط. اهـ [وأخرجه أحمد في "مسنده" ط. الرسالة: (٣٨/ ٤٦٦)، وابن أبي شيبه: (١٠/ ٤٦٠)، وابن سعد: (٦/ ١٧٢) والطبري في "تفسيره": (١/ ٨٠)، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (١٤٥١)، و(١٤٥٢)]، وغيرهم من طرق عن عطاء بن السائب، به. وفيهم ممن روى عن عطاء قبل الاختلاط، وقد نص جمع من أهل العلم على صحة حديثه إذا كان الرواية عنه ممن سمعوا منه قبل الاختلاط. كما في "الكواكب النيرات": (١/ ٣١٩)، وقد صحح إسناده أحمد شاكر في تعليقه على "تفسير الطبري": (١/ ٨٠). وأورده الدارقطني في "العلل" (٣/ ٦٠)، وأعل الطريق التي فيها ذكر أسماء الصحابة الذين كانوا يعلمونه القرآن قال الدارقطني: فسمى هؤلاء الثلاثة ولم يسمهم سواء، والأول أشبه. اهـ [راجع تخريج الأثر في "مسند أحمد" ط. الرسالة: (٣٨/ ٤٦٦)].

عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم. اهـ^(١) ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ^(٢).

وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه. والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أَرَادَهُ اللهُ؛ ليعبد الله بها على بصيرة.

الواجب على المسلم في تفسير القرآن:

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون معظمها لهذه الشهادة خائفاً من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيخزي بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأُثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا

(١) راجع "مقدمة في أصول التفسير"، و"مجموع الفتاوى" (١٣/ ٣٣٢).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "مقدمة تفسيره" (١/ ٨): فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ الْكُشْفُ عَنْ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ وَطَلَبُهُ مِنْ مَظَانِّهِ وَتَعَلُّمُ ذَلِكَ وَتَعْلِيمُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فَذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ إِلَيْهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا وَاشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ اتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ. اهـ

لَا تَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣٣] ، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. (١)

(١) شروط المفسر وآدابه: ذكر أهل العلم شروطاً كثيرة من أهمها:

- صحة الاعتقاد:

قال السيوطي رحمته الله: قال الإمام أبو طالب الطبري في أوائل تفسيره (القول في آداب المفسر): اعلم أن من شروطه صحة الاعتقاد أولاً، ولزوم سنة الدين، فإن كان مغموصاً عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين؟ ثم لا يؤتمن في الدين على الإخبار عن عام، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى؟ اهـ. [راجع "الإتقان" (٢ / ٤٩٧-٤٩٩)]

- التجرد عن الهوى:

لأن الأهواء تدفع أصحابها إلى نصره مذهبهم، فيغرون الناس بطيب الكلام ولحن البيان كالقدريّة والمعتزلة والرافضة وغيرهم. وهذا أمر ملموس، فإن أهل الأهواء ممن ألفوا في التفسير كالزخشري من المتقدمين، وسيد قطب والصابوني من المتأخرين المعاصرين قد ملئوا كتبهم التي خدموا فيها التفسير ببدعهم وضلالاتهم، بأبلغ عبارة وأخفى أسلوب لا يميزه إلا أهل العلم والهدى، وكم لبس على أهل الجهل والعمى.

- أن يكون له إطلاع بعلوم القرآن من ناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله وغير ذلك: وقد نقل السيوطي عن أبي القاسم النيسابوي أنه ذكر جملة من علوم القرآن ثم قال: فهذه خمسة وعشرون وجهاً - أي من علوم القرآن - من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى. اهـ. [راجع "الإتقان" (١ / ٢٧)]

- معرفة اللغة العربية: لأن القرآن نزل بلغة العرب. قال السيوطي رحمته الله: قال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب. اهـ. [راجع "الإتقان" (٢ / ٤٩٧-٤٩٩)]

المرجع في تفسير القرآن

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أولاً: كلام الله تعالى: فيفسر القرآن بالقرآن؛ لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به، ولذلك أمثلة منها:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[يونس: ٦٢]

- أن يتدرج في تفسيره للقرآن: فيفسر القرآن بالقرآن فإن لم يجد فسر القرآن بالسنة، وهكذا كما سيأتي في كيفية تفسير القرآن. [راجع "مقدمة في أصول التفسير" لشيخ الإسلام، و"الإتقان" (٢ / ٤٩٧-٤٩٩)]

- وأما آداب المفسر، فمنها:

- حسن النية وصحة المقصد: فإنما الأعمال بالنيات. قال السيوطي رحمته الله: ومن شروطه صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد، فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وإنما يخلص له القصد إذا زهد في الدنيا، لأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوصل به إلى غرض يصده عن صواب قصده ويفسد عليه صحة عمله. اهـ [راجع "الإتقان" (٢ / ٤٩٨)]

- الامتثال والعمل: لما يظنه من أحكام في كتب الله، فإن العمل بالعلم من أقوى الأسباب في بركة العلم وتسهيل تحصيله.

- أن لا يتعجل في تفسير الآية حتى ينظر كلام السلف وأئمة هذا الشأن: فبذلك يسلم من الخلل، ومن تكبر عن الأخذ بمن هو أعلم منه وأعرف، صح فيه قول القائل:

زَلْتُ بِهِ إِلَى الْحُضِيِّضِ قَدْمُهُ يَرِيدُ أَنْ يَعْرِبَهُ فَيَعْجِمُهُ

- أن يستشعر أنه مترجم عن الله: كما قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله تعالى.

فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: ٢]، فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: ﴿التَّجَمُّ الثَّقِيبُ﴾ [الطارق: ٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]، ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]. (١) ثانياً: كلام رسول الله ﷺ، فيفسر القرآن بالسنة؛ لأن

(١) المرجع الأول في التفسير: هو القرآن الكريم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر. اهـ [راجع "مقدمة في أصول التفسير"]
قال الشنقيطي رحمه الله: أجمع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كتاب الله عز وجل من الله جل وعلا. اهـ [راجع "أضواء البيان" (١ / ٥)]

- أقسام تفسير القرآن بالقرآن: ينقسم تفسير القرآن بالقرآن إلى قسمين:
أحدهما توقيفي لا اجتهد فيه ولا نظر، وهو أن يكون في الكلام لبس وخفاء، فيأتي بما يزيله ويفسره، إما بعده مباشرة أو في موضع آخر وارد مورد البيان له.
مثال الأول: قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فسرتها الآية التي بعدها، فبيّن من هو الولي قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

رسول الله ﷺ مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه. ولذلك أمثلة منها:

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] مجمل، وبيانه في قوله تعالى، في الآية الأخرى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبَحَ عَلَى النُّصَبِ﴾ [المائدة: ٣].

وهذا القسم لا شك أنه أبلغ أنواع التفسير وأتقنها، ولا قول لأحد معه، ومثله لا يختلف فيه، وهو الذي يصنف من التفسير بالمأثور.

الآخر اجتهادي: يعتمد على صحة الاستنباط، وقوة نظر المفسر، وتجرده في قربه من الصحة أو بعده عنها، وذلك بأن يحمل معنى آية على آية أخرى تكون مبينة وشارحة للآية الأولى، وهذا النوع منه المقبول ومنه المردود كأبي اجتهد في تفسير الآية. [راجع "قواعد الترجيح عند المفسرين" (١ / ٣٢٠ - ٣٢٢) و"أسباب الخطأ في التفسير" (١ / ٥٣ - ٥٤)]. مثاله: قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧].

فقال بعض المفسرين: المراد بـ(إِذَا عَسْعَسَ): إذا أدبر، واستدلوا بأدلة من القرآن منها أنه قال عقبه: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، ومنها أن الله أقسم به فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، وهذا ما رجحه ابن جرير.

وقال بعض المفسرين أن المراد بـ ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]، إذا أقبل واستدلوا على ذلك بأن الله أقسم بإقباله، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢]، وهذا اختيار ابن كثير راجع للزيادة "أضواء البيان" المقدمة.

- وأكثر التفاسير اعتناءً بهذا القسم:

(أ) تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ. (ب) تفسير الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ. "أضواء البيان".

١ - قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ففسر النبي

الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحاً ^{صلى الله عليه وسلم} من حديث أبي موسى (١).

وأبي بن كعب (٢). ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة (٣)، وفي "صحيح مسلم" عن صهيب بن سنان عن النبي ^{صلى الله عليه وسلم} في حديث قال فيه: "

(١) (ضعيف). أخرجه ابن جرير في "تفسيره" عن أبي موسى مرفوعاً وموقوفاً:

أما المرفوع: ضعيف جداً: فيه "شبيب بن سعيد التيمي الحبطي" في رواية ابن وهب عنه نكارة وهذا منها، راجع الكامل لابن عدي والتقريب، وفيه: أبان، هو أبان بن أبي عياش فيروز، قال عنه الحافظ في "التقريب": متروك. قال عنه أحمد شاكر في تحقيقه على تفسير ابن جرير: خبر هالك الإسناد. اهـ

* **وأما الموقوف:** **ضعيف جداً:** فيه: أبو بكر الهذلي، قال عنه الحافظ في "التقريب": أخباري متروك. وقال أحمد شاكر في تحقيقه على تفسير ابن جرير: أبو بكر الهذلي، ضعيف بمرة، وهذا خبر ضعيف الإسناد. اهـ [جامع البيان" ت. شاكر: (١٥ / ٦٤)].

(٢) **ضعيف:** فيه إبهام في رواته عن أبي العالية أخرجه ابن جرير في "تفسيره" ت. شاكر: (١٥ / ٦٩): قال أحمد شاكر: هذا خبر ضعيف إسناده، لجهالة من روى عن أبي العالية. اهـ

(٣) **ضعيف جداً:** فيه: محمد بن حميد الرازي، ضعيف وقد اتهم بالكذب، وفيه، إبراهيم بن المختار التميمي، ضعيف قال ابن حبان في الثقات: يتقي حديثه من رواية ابن حميد عنه. وهذه منها، وعطاء، هو: عطاء بن أبي مسلم الخراساني، وهو: عطاء بن ميسرة، يرويه عن كعب بن عجرة ولم يسمع منه. الأثر أخرجه ابن جرير، وقد ضعفه الحافظ في "الفتح" (٨ / ٣٤٧)، وأحمد شاكر في تحقيقه على "تفسير ابن جرير": (١٥ / ٦٨).

فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. (١)

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٧). وذكر الآية في الحديث تفرد بها حماد بن سلمة عن ثابت مرفوعاً وخالفه جمع من الرواة فرووها من كلام عبد الرحمن بن أبي ليلى مقطوعة، قال النووي في شرحه على مسلم: هكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ، قال أبو عيسى الترمذي وأبو مسعود الدمشقي وغيرهما لم يرووه هكذا مرفوعاً عن ثابت غير حماد بن سلمة ورواه سليمان بن المغيرة وحماد بن زيد وحماد بن واقد عن ثابت عن بن أبي ليلى من قوله ليس فيه ذكر النبي ﷺ ولا ذكر صهيب. وذكر المزي رحمه الله في "تحفة الأشراف" جمع من الرواة خالفوا حماد بن سلمة في رفعها (١٩٨ / ٤). وقد دافع شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الزيادة من طريق حماد بن سلمة وأنه أثبت في ثابت من غيره فقال في "بيان تلبيس الجهمية" (٨ / ٩٠): لكن رواية حماد بن سلمة أتم إسناداً ومتناً وذلك معروف في أحاديثه عن ثابت البناني لأنه كان بينهما من الصلة ما لم يكن بينه وبين غيره، وكان ثابت يقول ولا أن يصنعوا بي كما صنعوا بأبي سعيد يعني الحسن البصري لحدثهم أحاديث موثقة فلهذا كان يختصر لبعض الناس ويختص عنه حماد بن سلمة أشياء لاختصاصه به. اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله في "حادي الأرواح" (ص: ٣٠٥): وهذا حديث رواه الأئمة عن حماد، وتلقوه عن نبيهم بالقبول والتصديق. اهـ

قال الشيخ الألباني رحمه الله: حماد بن سلمة ثقة حافظ ولا سيما في روايته عن ثابت فزيادته حجة، والله أعلم. ورواية سليمان بن المغيرة وحماد بن زيد وصلها ابن جرير في "تفسيره" (١١ / ٧٤-٧٥) وهي مختصرة جداً عن رواية حماد بن سلمة مما يشعر أن ابن أبي ليلى كان أحياناً يختصر متنه وكذا إسناده فلا يسنده وتارة يسنده ويسوقه بتمامه. والله أعلم. اهـ

[تحقيق "السنة" لابن أبي عاصم (١ / ٢٠٦)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقد فسر النبي ﷺ «القوة بالرمي». رواه مسلم، وغيره من حديث عقبة بن عامر رحمته الله (١).

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩١٧).

- المرجع الثاني في التفسير: هي السنة النبوية: قال شيخ الإسلام رحمته الله: فإن أعياك ذلك - أي تفسير القرآن بالقرآن - فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له....، والفرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة. اهـ راجع "مقدمة التفسير" له. وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

قال القرطبي رحمته الله: فالرسول مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يفصله. اهـ "تفسير القرطبي" عند الآية. قال ابن كثير رحمته الله: ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من ربهم، لعلمك بمعنى ما أنزل الله، وحرصك عليه وإتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل. اهـ راجع "تفسير ابن كثير" عند الآية. قال مكحول رحمته الله: القرآن أحوج إلى السنة، من السنة إلى القرآن. اهـ [راجع "جامع بيان العلم وفضله" (٢ / ١٩١)].

قال الإمام أحمد رحمته الله: السنة تفسر الكتاب وتبينه. اهـ [راجع "جامع بيان العلم" (٢ / ١٩١)].

قال شيخ الإسلام رحمته الله في "النبوات" (١ / ٢٤٨): وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة: دال، ودليل، ومبين، ومُستدل. فالدال هو الله، والدليل هو القرآن، والمبين هو الرسول ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، والمستدل هم أولوا العلم وأولوا الأبواب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم، وقد ذكره ابن المني عن أحمد. وهو مذكور في العدة للقاضي أبي يعلى، وغيرها، إما أن أحمد قاله، أو قيل له، فاستحسنه. اهـ

- =
- يشترط في تفسير القرآن بالسنة: صحة السند إلى رسول الله ﷺ:
- قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالواجب أن يفرّق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب، فإن السنة هي الحق دون الباطل، وهي الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة، فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عموماً، ولمن يدعي السنة خصوصاً. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (٣ / ٣٨٠)]
- قال الزركشي رحمه الله: لطالب التفسير مأخذ كثيرة أمهاتها أربعة: الأول: النقل عن النبي ﷺ، وهذا هو الطراز الأول، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع فإنه كثير. اهـ [راجع "البرهان" (٢ / ١٥٦)]
- إذا صح التفسير عن رسول الله ﷺ فلا حاجة إلى قول من بعده: قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (٧ / ٢٨٦)].
- قال ابن الوزير: التفسير النبوي مقبول بالنص والإجماع. اهـ [راجع "إثبات الحق على الخلق له، (ص: ١٥٢)]
- هل بين النبي ﷺ لأصحابه كل معاني القرآن؟
- اختلف في هذه المسألة إلى ثلاث أقوال:
- القول الأول: أن رسول الله ﷺ بين لهم كل معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، وهذا القول اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. [راجع "مقدمة أصول التفسير" له].
- وقد استدل شيخ الإسلام لهذا القول بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ولا بد أن رسول الله ﷺ قد بين كل معانيه أيضاً، وإلا كان مقصراً في البيان الذي كلف به من الله، وقد رُد عليه أن رسول الله ﷺ ما كان يبين لهم إلا ما أشكل عليهم، أما الذي لم يشكل عليهم مما فهموا معناه بمقتضى معاشتهم للتزيل، وفهمهم للغة العربية، لم يكن يفسره لهم لوضوحه عندهم.
- =

ومما يرد به على هذا القول أن الصحابة اختلفوا في تفسير آيات من القرآن بنى كل واحد منهم تفسيره عن اجتهاد، فلو كان هناك نص في تفسير كل آية لأبرزه بعضهم ولما غفل عنه كلهم.

- القول الثاني: أن النبي ﷺ لم يبين لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن: قال السيوطي رحمه الله: الذي صح من ذلك قليل جداً بل أصل المرفوع منه في غاية القلة. اهـ [راجع "الإتقان" (٢ / ٥٠٥)].

واستدل أصحاب هذا القول بحديث عائشة: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً بعدد علمه إياهن جبريل»، رواه البزار وهو حديث ضعيف. من رواية جعفر بن محمد بن خالد الزيري، قال البخاري: (لا يتابع في حديثه). [راجع بيان حال الحديث بتوسع الضعيفة للألباني: (٦٥٦٩)].

وأن الحكمة في عدم التنصيص، لأجل أن يتفكر عباده في كتابه، وأنه ﷺ لو كان يبين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء له: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»، فائدة؛ لأنه يلزم استواء الصحابة في معرفة تأويله، وأدلة أصحاب هذا القول لا تنهض للاحتجاج على ما قالوه، فالحديث ضعيف وكتب السنة مليئة بالتفسير المرفوع، ولن يسكت النبي ﷺ عن بيان ما أشكل على الصحابة من أجل أن يتفكروا أو أن يكون فهم القرآن خاصة لابن عباس.

- القول الثالث: أن القرآن أقسام:

الأول: ما لا يعلمه إلا الله، مثل كيفية الصفات وكثير من الأمور الغيبية التي لا يعلم تفسيرها إلا الله.

الثاني: قرآن نص على تفسيره رسول الله ﷺ لإشكاله وأداءً للأمانة من التبيين، وهذا كثير في السنة.

الثالث: قرآن علمته العرب بمقتضى لغتهم، فلم يحتج إلى بيان... والله أعلم.

[راجع الخلاف بتوسع في "التفسير والمفسرون" للذهبي (المعاصر)، (ص: ٤٨ وما بعدها).

ثالثاً: كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب، ولذلك أمثلة كثيرة جداً منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما (١): أنه فسر الملامسة بالجماع. (٢)

-
- (١) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة برقم (١٧٥٧) فما بعده، وابن جرير في تفسيره ([النساء: ٤٣])، والبيهقي في الكبرى (٦٠٩) من طرق عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما:
- ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] قَالَ: هُوَ الْجَمَاعُ.
- (٢) المرجع الثالث في التفسير: هي أقوال الصحابة رضي الله عنهم:
- قال شيخ الإسلام رحمته الله: إذا لم تجد التفسير لا في قرآن ولا في سنة، رجعت إلى أقوال الصحابة. اراجع "مقدمة في أصول التفسير" له
- الأسباب التي أهلت الصحابة لأن يكونوا المرجع الثالث في تفسير القرآن:
- ذكر أهل العلم لذلك أسباب كثيرة من أهمها:
- لمشاهدتهم للوحي والتنزيل: فكانوا يعلمون فيمن نزلت الآية وأين نزلت وفي أي زمان نزلت، وهذه من الأمور المهمة المعينة على تفسير القرآن وفهمه.
- لأن القرآن نزل بلغتهم: فهم أعلم الناس بمعاني القرآن؛ لأنه نزل بلسانهم ولغتهم.
- قال القرطبي رحمته الله: كل ما أخذ عن الصحابة فحسن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم اراجع "مقدمة تفسير القرطبي"
- لما حباهم الله به من قوة الفهم، وسعة الإدراك، و غزارة العلم لا سيما علماؤهم وكبرائهم:

قال شيخ الإسلام رحمته الله : هم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم. اهـ [راجع "مقدمة في أصول التفسير"]

- لأنهم أصدق الناس بعد الأنبياء في طلب الحق.
 - ولأنهم أروع الناس أن يقولوا على الله بلا علم.
 - لأنهم من أسلم الناس من الهوى والعقائد الضالة المنحرفة.
 - أنهم من أطهر الناس من المعاصي والمخالفات التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب:
- فكم حرم إنسان من الوصول إلى الصواب بمعصية فعلها، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].
- *- وجوب الأخذ بتفاسير الصحابة.

قال الإمام أبو يعلى رحمته الله : أما تفسير الصحابة فيجب الرجوع إليه، وهذا ظاهر كلام أحمد رحمته الله في مواضع من كتاب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والوجه فيه أنهم شاهدوا التنزيل وحضروا التأويل فعرفوا ذلك ولهذا جعلنا قولهم حجة. اهـ [راجع "العدة في أصول الفقه" لأبي يعلى: (٣) / (٧٢١-٧٢٤)].

بل عد شيخ الإسلام الإعراض عن تفاسير الصحابة والتابعين من البدع وفتح باب الزندقة والإلحاد.

حيث قال رحمته الله : وفي الجملة، من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، فالملقصود ببيان طرق العلم وأدلتها وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً. اهـ [راجع "مقدمة في أصول التفسير" و"مجموع الفتاوى" (١٣) / (٣٦١-٣٦٢)].

وقال **رَحْمَةُ اللَّهِ** : وقد تبين بذلك أن من فسر القرآن أو الحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين، فهو مفتر على الله ملحد في آيات الله محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (١٣ / ٢٤٣)].

قال ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ** : وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في القرآن والتوراة والإنجيل وسبق لهم على لسان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من الفضل ما ليس لأحد بعدهم..... أدوا إلينا سنن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عاماً وخاصاً وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا.... وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله. اهـ [راجع "إعلام الموقعين" (١ / ٨٠)].

* شروط الاعتماد على تفسير الصحابي:

الشرط الأول: صحة السند إليه: فإن علم التفسير قد دخل فيه الكثير من الضعيف والموضوع. لذلك قال الإمام أحمد **رَحْمَةُ اللَّهِ** : ثلاث ليس لها أصل: المغازي والملاحم والتفسير. اهـ

قال ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ** : ومعنى ذلك أن الغالب عليها أنها مرسلة ومنقطعة، فإذا كان الشيء مشهوراً عند أهل الفن قد تعددت طرقه فهذا مما يرجع إليه أهل العلم بخلاف غيره. اهـ

الشرط الثاني: أن لا يخالف نصاً من كتاب أو سنة.

الشرط الثالث: أن يُنظر هل هذا الصحابي ممن يأخذ عن الإسرائيليات أم لا؟ فإذا كان ممن يأخذ منهم، فيُنظر في تفسيره هل هو مما عزاه إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أم مما اجتهد فيه فيقبل، أما إذا كان مما أخذه عن بني إسرائيل فلا يعتمد عليه.

وسيدكر فيما سيأتي: حكم الإسرائيليات والاعتماد عليها في التفسير.

* تفاسير الصحابة أنواع:

الأول: ما له حكم الرفع: وهو ما لا يقال من جهة الرأي: كأسباب النزول، والإخبار عن المغيبات، ما لم يكن مما أخذ من الإسرائيليات.

قال الحافظ رحمته الله: والحق أن ضابط ما يفسره الصحابي رحمته الله إن كان مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا من منقول عن لسان العرب، فحكمه الرفع وإلا فلا، كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وعن الأمور الآتية كالملاحم والفتن والبعث وصفة الجنة والنار، والإخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص فهذه الأشياء لا مجال للاجتهاد فيها فيحكم لها بالرفع. اهـ

وقال رحمته الله: وأما إذا فسر آية تتعلق بحكم شرعي فيحتمل أن يكون ذلك مستفاداً عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القواعد فلا يجزم برفعه، وكذا إذا فسر مفرداً فهذا نقل عن اللسان خاصة فلا يجزم برفعه، وهذا التحرير الذي حررناه هو معتمد خلق كثير من كبار الأئمة؛ كصاحبي الصحيح والإمام الشافعي وأبي جعفر الطبري وأبي جعفر الطحاوي وأبي بكر بن مردويه في تفسيره المسند والبيهقي وابن عبد البر في آخرين.

إلا أنه يستثنى من ذلك ما كان مفسر له من الصحابة رضي الله عنهم من عرف بالنظر في الإسرائيليات.....، فمثل هذا لا يكون حكم ما يخبر به من الأمور التي قدمنا ذكرها الرفع لقوة الاحتمال والله أعلم. اهـ [راجع "النكت": (٢ / ٥٣١ - ٥٣٥)].

الثاني: ما رجعوا فيه إلى لغتهم:

وحكم هذا القول القبول لأنهم أهل اللسان، قال الزركشي رحمته الله: ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسر من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتمادهم. اهـ ["البرهان" (٢ / ١٧٢)].

الثالث: ما رجعوا فيه إلى أهل الكتاب (الإسرائيليات): فهذا لا يعتمد عليه، وسيأتي الكلام عن الإسرائيليات بإذن الله...

الرابع: ما اجتهدوا فيه وهو أنواع:

- النوع الأول: ما اتفقوا عليه، وهذا حجة بالإجماع.

رابعاً: كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم. ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيراً في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

[راجع "الموافقات" (٣ / ٢٣٨) و"مذكر أصول الفقه" ص: (١٦٥)].

- النوع الثاني: أن ينقل عن أحدهم قول ولا يعلم له مخالف، وله صورتان:
 - الصورة الأولى: أن يشتهر، مع عدم العلم بالمخالف: فهذا حجة عند جماهير أهل العلم قال شيخ الإسلام رحمته الله: وأما أقوال الصحابة فإن انتشرت ولم تنكر في زمانهم فهي حجة عند جماهير العلماء. اهـ [راجع "المجموع" (٢٠ / ١٤)].
 - الصورة الثانية: أن لا يشتهر، أو لا يعلم هل اشتهر أو لا؟: فهذا يرى الجمهور - ومنهم الأئمة الأربعة - أنه حجة. قال شيخ الإسلام رحمته الله: وإن قال بعضهم قولاً ولم يقل بعضهم بخلافه ولم ينتشر، فهذا فيه نزاع، وجمهور العلماء يحتجون به كأبي حنيفة ومالك وأحمد في المشهور عنه والشافعي في أحد قوليه وفي كتبه الجديدة الاحتجاج بمثل ذلك في غير موضع. اهـ [راجع "المجموع" (٢٠ / ١٤)].
- النوع الثالث: أن يختلف اجتهادهم فيرجح بين اجتهادهم بأحد المرححات، وفي هذه الحالة لا يكون قول بعضهم حجة على قول الآخر.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: وإن تنازعوا رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، ولم يكن قول بعضهم حجة مع مخالفة بعضهم له باتفاق العلماء. اهـ [راجع "المجموع" (٢٠ / ١٤)].

وقد ذكر ابن القيم رحمته الله: أن تفسير الصحابي حجة سواء رفعه إلى النبي صلوات الله عليه وآله وسلم أم لم يرفعه، بشرط أن لا يكون في المسألة نص يخالفه، وأن يقول في الآية قولاً لا يخالفه فيه أحد من الصحابة. اهـ [راجع "إعلام الموقعين" (٤ / ١٥٣ - ١٥٥)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١): إذا أجمعوا - يعني التابعين - على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وقال أيضاً^(٢): من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، ثم قال: فمن خالف قولهم، وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً. اهـ^(٣)

(١) راجع "مقدمة في أصول التفسير" و"مجموع الفتاوى" (١٣ / ٣٧٠).

(٢) راجع "مقدمة في أصول التفسير" و"مجموع الفتاوى" (١٣ / ٣٦١-٣٦٢).

(٣) المرجع الرابع في التفسير: أقوال التابعين:

التابعي: هو من لقي أصحاب النبي ﷺ ولو واحداً وهو على الإسلام ومات على ذلك.

وسوف نتكلم عن هذه القاعدة بإذن الله في مباحث:

* الأسباب التي أهلت التابعين لأن يكونوا المرجع الرابع في التفسير:

ذكر أهل العلم لذلك أسباباً كثيرة من أهمها:

- أنهم أخذوا كثيراً من التفسير عن الصحابة.
- كونهم خير الناس بعد الصحابة.
- معرفتهم بلسان العرب، وكون اللغة العربية لم تتغير كثيراً في عصرهم فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

- أنهم أسلم من الأهواء ممن بعدهم. [راجع "قواعد في التفسير" (١/١٨٨) و"شرح أصول التفسير" للعثيمين]. إلى غير ذلك مما اجتمع فيهم من الورع والتقوى والخوف من الله عَلَيْهِ السَّلَام والحرص على العلم مما جعل لهم هذه الميزة.

*** مكانة تفسير التابعين:**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين. اهـ [راجع "مقدمة في أصول التفسير" له].

*** أعلم التابعين بالتفسير:**

أعلمهم تلاميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثم تلاميذ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : التفسير أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهم من أصحاب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم. اهـ [راجع "مقدمة أصول التفسير" له].

*** حكم تفسير التابعين:**

تفسير التابعين أنواع، وكل نوع له حكمه المناسب له:

النوع الأول: ما أخذوه من القرآن أو من السنة أو مما أجمع عليه الصحابة أو ما اشتهر عن بعض الصحابة ولم يعلم له مخالف، فهذا النوع حُجَّة.

النوع الثاني: ما أجمعوا عليه، فهذا حُجَّة. كما تقدم عن شيخ الإسلام.

النوع الثالث: ما رجعوا فيه إلى الإسرائيليات فلا يعتمد عليه.

النوع الرابع: أن يرد عن أحدهم قولاً ولا يُعلم له مخالف.

وهذا النوع لأهل العلم فيه قولان:

أحدها: أنه حجة: وهو رواية عن أحمد وقول للشافعي.

الثاني: أنه ليس بحجة: وهو رواية عن أحمد، واختارها ابن عقيل من الحنابلة، وهو ظاهر قول الشافعي في الرسالة.

وقد نسب ابن القيم هذا القول لأكثر أهل العلم، وعقبه بقوله: على أن في الاحتجاج بتفسير التابعي عند الإمام أحمد روايتين، ومن تأمل كتب الأئمة ومن بعدهم وجدها مشحونة بالاحتجاج بتفسير التابعي. اهـ [راجع "إعلام الموقعين" (٤ / ١٥٥)].

النوع الخامس: ما اختلفوا فيه فهو ليس بحجة وإنما يعمل فيه بالمرجحات.

- إذا لم يوجد في تفسير الآية نقل من كتاب أو سنة أو أثر عن صحابي ووجد نصوص لتابعين فالأخذ بها أو بالراجح منها إذا لم يمكن الجمع أولى من إهمالها واختراع قول جديد: وقد تقدم نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، في أن الإعراض عن تفسير الصحابة والتابعين والأخذ بأقوال من بعدهم فتح لباب البدع والإلحاد والزندقة.

قال ابن عثيمين رحمته الله: الذين تلقوا عن الصحابة التفسير لا يساويهم من لم يكن كذلك، ومع هذا فإنهم إن لم يسندوه عن الصحابي فإن قولهم ليس بحجة على من بعدهم إذا خالفهم، لأنهم ليسوا بمنزلة الصحابة، ولكن قولهم أقرب إلى الصواب، وكلما قرب الناس من عهد النبوة كانوا أقرب إلى الصواب ممن بعدهم، وهذا شيء واضح، لغلبة الأهواء فيما بعد ولكثرة الوسطاء بينهم وبين عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعدهم هذا لا شك إنه يقلل من قيمة أقوالهم. اهـ [راجع "شرح مقدمة في أصول التفسير" له]

[وراجع "قواعد التفسير" (١ / ١٩٥ وما بعدها) و"التفسير والمفسرون" (١ / ١٢٨ وما بعدها)]

قال شيخ الإسلام رحمته الله: جوّز من جوّز منهم أن تتأول الآية بخلاف تأويل السلف، وقالوا: إذا اختلف الناس في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث، بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين، وهذا خطأ، فإنهم إذا أجمعوا على أن المراد بالآية إما هذا وإما هذا كان القول بأن المراد غير هذين القولين خلافاً لإجماعهم،... فكيف يجوز أن تضل الأئمة عن فهم القرآن ويفهمون منه كلهم غير المراد. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (١٥ / ٩٥) و(١٣ / ٥٩ - ٦٠)]

تنبيه: أما إذا كان القول الذي قرره من جاء بعد السلف لا يتعارض مع أقوال السلف، ولا يلزم من تقريره نسبة الخطأ إلى السابقين، فهذا لا مانع منه، إذ هو من الفهم الذي يؤتاه الله من شاء في كتابه إذا كان القول صحيحاً. وأمثلة هذا في كلام ابن القيم كثيرة:

- قال في تفسير قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٣].

ذكر تفسيرها مفصلاً، ثم قال **رحمته الله**: فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو والكلام والقدرة والعلم والشرع والقدر وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد، وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله **صلى الله عليه وسلم** يتضمن: الرسالة والنبوة، فهذه عشرة من قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة ولكن: خود تُزف إلى ضرير مقعد فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماحك إياها !!! وهكذا سائر آيات القرآن.

فما أشدها من حسرة وما أعظمها من عُبْنَةٍ على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسرارهِ ومعانيهِ !! فالله المستعان. اهـ [راجع "بدائع الفوائد" (١ / ٣٣٨)].

- وقال في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، ذكر تفسيرها ثم قال **رحمته الله**: فتأمل هذا

الموضع الذي خفي على كثير من الناس. اهـ [راجع "بدائع الفوائد" (١ / ٣٤١)].

- وقوله في قوله تعالى: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]، ذكر تفسيرها، ثم قال **رحمته الله**: وهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير فقد حام عليه من حام، وما وَرَدَ ولا كشف المعنى ولا أوضحه، فراجع ما قالوه والله الموفق المانّ بفضلِهِ. اهـ [راجع "بدائع الفوائد" (٢ / ٦٢١)].

- ومن ذلك ما قاله الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١٠-١١].

خامساً: ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي؛ لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به. مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]، فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيقدم المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر.

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فالمراد

قال **رحمته الله** يفهم منه أنه لو تستطيع جند من الأحزاب الارتقاء في أسباب السماء أنه يرجع مهزوماً صاغراً ذاهراً ذليلاً....، فالآية الكريمة يفهم منها ما ذكرنا، ومعلوم أنه لم يفسرها بذلك أحد من العلماء بل عبارات العلماء تدور على الجند المذكور الذين كذبوه....، ولكن كتاب الله لا تزال تظهر غرائبه وعجائبه وغرائبه متجددة، على مر الليالي والأيام....، ولا مانع من جعل الآية على ما جعلها المفسرون وما ذكرنا أيضاً أنه يفهم منها لما تقرر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتل معاني كلها صحيح تعين حملها على الجميع. اهـ [راجع "أضواء البيان" (٣/ ١٢٤)].

بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم^(١) عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم، صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى».

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسما والارض والصدق والكذب والحجر والإنسان.^(٢)

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم: (١٤٩٧، ٤١٦٦)، ومسلم برقم: (١٠٧٨).

(٢) المرجع الخامس في التفسير: تفسير القرآن باللغة العربية:

- اللغة العربية كانت مرجعاً لتفسير القرآن: لأنه نزل باللغة العربية، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، أي أنزلناه قرآناً عربياً - بلغة العرب - لنعقل معانيه ونفهمها. فدل هذا على أن من كان على علم باللغة العربية استطاع فهم القرآن لأنه نزل بها.

قال القرطبي رحمه الله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلسان العرب: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمون أحكامه ومعانيه. اهـ [راجع "تفسير القرطبي" عند الآية]

* أهمية معرفة اللغة العربية لمن أراد فهم القرآن:

قال السكاكي رحمه الله: لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره ولا أكشف لقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية في القرآن نراها قد ضيقت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مأخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة. اهـ [راجع "التحرير والتنوير" (١) / ١٨-٢٣] مختصراً بتصرف نقلاً من "قواعد التفسير" (١ / ٢١١).

قال الزركشي رحمه الله: و معرفة هذا الفن للمفسر ضروري وإلا فلا يحل له الأقدام على كتاب الله. اهـ

وقد اشتهر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله. قلت: لم يثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسنده ضعيف: فيه مؤمل بن إسماعيل سيء الحفظ، وأبو الزناد يرويه عن ابن عباس وأبو الزناد قد نص البخاري أنه لم يسمع من أنس وأنس مات سنة: (٩٢ هـ)، ونص أبو حاتم الرازي كما في "المراسيل" أنه لم يسمع من (ابن عمر) وهو مات سنة (٧٣ هـ) فمن باب أولى أنه لم يسمع من ابن عباس وهو مات قبلهما سنة (٦٨ هـ). [راجع تحقيق شيخنا مقبل الوادعي رحمته الله على تفسير ابن كثير: (١ / ١٩). وروى مرفوعاً عن ابن عباس بنحوه، قال ابن جرير: في إسناده نظر].

قال ابن كثير رحمته الله: النظر الذي أشار إليه في إسناده من جهة محمد بن السائب الكلبي، فإنه متروك الحديث، لكن قد يكون إنما وهم في رفعه، ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم. اهـ. لكن هذه الأقسام للتفسير قد اشتهرت عند العلماء وتناقلوها مع الإقرار لها، فلا تكاد تجد كتاباً في أصول التفسير وعلوم القرآن إلا ذكرها، مما يدل على صحة هذا التقسيم عندهم. وقد تقدم ذكر أمثلة من تفسير السلف للقرآن باللغة العربية.

وقد نقل صاحب كتاب (مقدمة المباني) حامد بن محمد بن بصطام - ت ٤٢٥ هـ: إجماع الصحابة على جواز تفسير القرآن باللغة. راجع "مقدمتان في علوم القرآن" (ص: ٢٠١).

قواعد في التفسير باللغة العربية:

■ القاعدة الأولى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة العربية ولا غيرهم اهـ [راجع "الإيمان الأكبر" لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٢٢٤)].

وقد تقدم الإشارة إلى هذه القاعدة، وأنه متى وجد التفسير المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن السلف فلا ينظر إلى تفسير القرآن بكلام العرب وأهل اللغة.

■ القاعدة الثانية:

التقدم والإمامة في تفسير القرآن باللغة العربية للصحابة ثم للتابعين، لأنهم عرب خلّص وبلغتهم نزل القرآن [راجع "فصول في أصول التفسير" لمساعد الطيار].
فمن الخطأ أن يُسوَّى بين تفسير الصحابة للقرآن باللغة العربية، وتفسير من جاء بعدهم من أئمة التفسير اللغوي كأبي عبيدة معمر بن المثنى والفراء والزجاج وغيرهم، وهذا لا يعني هضم منزلة من جاء بعد السلف في فهم اللغة، لكن المقصود أن رتبهم فيه دون رتبة الصحابة والتابعين.

■ القاعدة الثالثة:

في تفسير القرآن باللغة العربية يُراعى المعنى الأغلب والأشهر والأفصح دون الشاذ أو القليل النادر.

[راجع "قواعد في أصول التفسير" (١ / ٢١٣) و(فصول في أصول التفسير" (ص: ٤٣)].

لأن القرآن نزل بأفصح لغات العرب وأشهرها، لذلك امتنع الإعراض عن الأفصح والأشهر في لغة العرب إلى الشاذ أو القليل النادر.

مثاله قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبا: ٢٤]. [راجع الخلاف في تفسير الآية "تفسير القرطبي"، وابن كثير والألوسي].

فسر بعضهم البرد هنا: بالنوم، وهذا المعنى قليل في الاستعمال في لغة العرب، والمشهور في معنى البرد: أنه ما يُبرّد حر الجسم. ولا ينافي ذلك أنهم يعذبون بالزمهرير، لأن المقصود بالبرد هنا برد يتفعون به، لا برد يعذبون به. قال ابن جرير رحمّه الله: وتوجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من اللغات، أولى من توجيهه إلى الأنكر ما وجد إلى ذلك سبيل. اهـ [راجع "تفسير ابن جرير" [البقرة آية رقم: ٢٤٨].

وقال في موضع آخر: وتوجيه معاني كتاب الله عز وجل إلى الظاهر المستعمل في الناس، أولى من توجيهها إلى الخفي القليل في الاستعمال. اهـ [راجع "تفسير ابن جرير" [آل عمران آية رقم: ٢٧].

■ القاعدة الرابعة:

أن يراعى تقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي إذا تعارضا إلا إذا دل دليل على إرادة المعنى اللغوي لأن القرآن نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة.

[راجع "شرح أصول التفسير" للعثيمين و"فصول في علم التفسير" ص: (٤٤)]

للحقيقة الشرعية واللغوية أربعة أحوال:

- الحالة الأولى: أن تختلف الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية، فتقدم الحقيقة الشرعية، لأن القرآن نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة. مثاله، قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيكَ بِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].
- فالصلاة لغة: الدعاء، وفي الشرع: الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة، فيقدم المعنى الشرعي لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب.
- الحالة الثانية: أن تختلف الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية، فتقدم الحقيقة اللغوية لدليل ومرجح.
- مثاله: قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فالصلاة في الشرع لها كيفية مخصوصة، والصلاة في اللغة: الدعاء، وهي المقصودة هنا بدليل: ما رواه مسلم: عن عبدالله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: (اللهم صل على آل أبي أوفى).

- الحالة الثالثة: أن تتفق الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية فلا إشكال في هذا وهذا كثير في نصوص الكتاب والسنة مثاله: السماء والأرض والحجر والإنسان، فهذه الكلمات معانيها في الشرع واللغة واحد.

- الحالة الرابعة: أن لا يوجد في الحقيقة الشرعية أو العرف الشرعي معنى يخالف الحقيقة اللغوية فيؤخذ باللغة العربية لأن القرآن نزل باللغة العربية.

■ القاعدة الخامسة:

أن يراعي المفسر عند تفسير اللفظة السياق وأسباب النزول، فلا ينظر إلى المعنى اللغوي نظراً محضاً، بل يبين معنى اللفظة اللغوية بناء على ما هي فيه من السياق وسبب النزول. قال شيخ الإسلام رحمته الله : من أهم أسباب الخطأ في التفسير، هو ما فعله أقوام حيث فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به، فراعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (١٣) / ٣٥٥-٣٥٦ و (٧ / ٢٨٦) و "مقدمة في أصول التفسير" له].

وقد أنكر العلماء على أبي عبيد معمر بن المثنى المعتزلي، لأنه اعتمد على تفسيره للقرآن على اللغة العربية دون النظر إلى سياق القرآن وملابساته وأسباب النزول. ومن أمثلة ذلك: أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، قال في تفسير (تثبيت الأقدام) أي: يفرغ عليهم الصبر وينزله عليهم فيثبتون لعدوهم. قال الطبري رحمته الله : وذلك قول خلاف لقول جميع أهل التأويل من الصحابة والتابعين وحسب قول خطأ أن يكون خلافاً لقول من ذكرنا، وقد بينا أقوالهم فيه، وأن معناه: ويثبت أقدام المؤمنين بتليد المطر الرمل، حتى لا تسوخ أقدامهم، وحوافر دوابهم. اهـ [راجع "تفسير ابن جرير" (سورة الأنفال آية رقم: ١١)].

و من أحسن الكتب التي بينت معنى اللفظة في اللغة مع مراعاة ما هي فيه من سياق: قال الزركشي رحمته الله : ومن أحسنها كتاب المفردات للراغب، وهو يتصيد المعاني من السياق لأن مدلولات الألفاظ خاصة. اهـ وقال: وهذا يعني به الراغب كثيراً في كتابه المفردات فيذكر قيلاً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنه اقتنصه من السياق. اهـ [راجع "البرهان" (١ / ٢٩١) و (٢ / ١٧٢)].

■ القاعدة السادسة:

[كل معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء]

مثاله: قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. قال أهل البدع: اليد هنا النعمة وهذا باطل.

قال الأشعري في "الإبانة": وليس يجوز في لسان العرب، ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعني به النعمة. اهـ راجع "الإبانة" (ص: ٥٤). ومن ذلك تفسير المبتدعة لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، في سبع مواضع من القرآن.

قال: إن استوى بمعنى استولى.

قال ابن القيم رحمه الله: إن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب، قال ابن الأعرابي وقد سئل: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك، وهذا هو من أكابر أئمة اللغة. اهـ [راجع "الصواعق المرسلة" (٢) / ١٢٧].

■ القاعدة السابعة:

[إذا كان اللفظ يحتمل عدة معاني في اللغة لا تعارض بينها ولا تناقض، جاز حمل الآية عليها جميعاً]. [راجع "فصول من أصول التفسير" (ص: ٤١ - ٤٢)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إذا قال أحدهم: ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ [الأنعام: ٧٠]، أي تحبس، وقال الآخر: ترتحن، ونحو ذلك لم يكن من اختلاف التضاد.....، وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً، فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين. اهـ [راجع "مقدمة في أصول التفسير" لشيخ الإسلام].

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، اختلف في معنى ﴿إِلَّا﴾ إلى أقوال: (الأول: العهد). (الثاني: القرابة). (الثالث: الله سبحانه).

قال الطبري رحمه الله معلقاً على الأقوال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: (الإل): اسم يشتمل على معاني ثلاثة، وهي: العهد والعقد والحلف والقرابة، وهو أيضاً بمعنى: الله، فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خصّاً بذلك معنى دون

معنى، فالصواب أن يعم ذلك كما عم بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة فيقال: لا يرقبون في مؤمن الله ولا قرابة ولا عهداً ولا ميثاقاً. اهـ راجع تفسير الطبري [التوبة آية رقم: ١٠].

■ القاعدة الثامنة:

لا يجوز أن يحمل كلام الله على مجرد الاحتمال النحوي أو اللغوي.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين لاسيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطاً من المفسرين المشهورين، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه، كما يقصد بذلك المفسرون. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (١٥ / ٩٤)].

قال ابن القيم رحمته الله: وينبغي أن يتفطن هاهنا لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ويكون به الكلام له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب الجملة ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن.

مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ: ﴿وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، بالجر: إنه قسم.

ثم قال رحمته الله: فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال، فإنك تستفح بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم بكلامه، وسنزيد هذا إن شاء الله بياناً وبسطاً في الكلام على أصول التفسير، فهذا أصل من أصوله، بل من أهم أصوله. اهـ [راجع "بدائع الفوائد" (٣ / ٨٧٧)].

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، قال ابن عباس: قضى: أمر، وقال مجاهد: وصى، وقال الربيع بن أنس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، أو متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية. (١)

■ القاعدة التاسعة:

لا يجوز تحريف معاني القرآن من أجل المحافظة على قاعدة نحوية.

قال القاسمي رحمته الله: وقد يقدر بعض النحاة ما يقتضيه علم النحو، لكن يمنع منه أدلة شرعية، فيترك ذلك التقدير ويقدر آخر يليق بالشرع. اهـ [راجع "تفسير القاسمي" (١/ ١٦٣)] قال ابن القيم رحمته الله: قال تعالى مخبراً عن قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦]، فهذا شرط دخل على ماضي اللفظ، وهو ماضي المعنى قطعاً لأن المسيح إما أن يكون صدر منه هذا الكلام بعد رفعه إلى السماء أو أن يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة، وعلى التقديرين فإنها تعلق الشرط وجزاؤه بالماضي وغلط على الله من قال: إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه، والتقدير: إن أكن أقول هذا فإنك تعلمه، وهذا تحريف للآية، لأن هذا جواب، إنما صدر منه بعد سؤال الله له عن ذلك، والله لم يسأله وهو بين أظهر قومه ولا اتخذه وأمه إلهين إلا بعد رفعه بمئتين من السنين. فلا يجوز تحريف كلام الله انتصاراً لقاعدة نحوية، هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية.... اهـ، ثم ذكر توجيه الآية. [راجع "بدائع الفوائد" (١/ ٧٨)].

(١) قال الشيخ ابن العثيمين رحمته الله في شرحه: يسمى هذا الاختلاف اختلافاً لفظياً لا يؤثر ولا يضر، ولا يصح أن تقول في الآية ثلاثة أقوال: قول بمعنى أمر، وقول بمعنى وصى، وقول بمعنى أوجب، لأن المعنى واحد.

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع، مثاله قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال ابن مسعود رحمته الله: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها، لأنها تحتملها من غير تضاد^(١)، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.^(٢)

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبا: ٣٤]، قال ابن عباس: دهاقاً مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية. ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فتحمل عليها جميعاً ويكون كل قول لنوع من المعنى.^(١)

(١) قال الشيخ ابن العثيمين رحمته الله في شرحه: هذا اختلاف في اللفظ والمعنى لكن هذه الأقوال لا منافاة بينها فتحمل الآية على المعاني كلها يعني كل واحد من المفسرين ذكر نوعاً من المعنى.

(٢) قال الشيخ ابن العثيمين رحمته الله في شرحه: أي مثال هذا الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، مثاله: الرجل من بني إسرائيل، مثاله الرجل من أهل اليمن، مثاله الرجل من أهل البلقاء.

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معا للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلالة السياق أو غيره. (٢)

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، قال ابن عباس رحمهما: غير باغ في الميتة ولا عاد من أكله، وقيل: غير خارج على الإمام ولا عاص بسفره والأرجح الأول؛ لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحل ما ذكر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرم وغير ذلك.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، قال علي بن أبي طالب رحمهما في الذي بيده عقدة النكاح: هو

(١) قال الشيخ ابن العثيمين رحمهما في شرحه: هذه الأقوال لا منافاة بينها؛ لأنه يمكن أن تكون مملوءة ومتتابعة وصافية، فتحمل على المعاني الثلاثة ويكون كل واحد من المفسرين ذكر نوعاً من المعنى.

(٢) قال الشيخ ابن العثيمين رحمهما في شرحه: إذا اختلف اللفظ والمعنى والآية لا تحتمل إلا معنى واحد، فماذا نصنع؟ يجب أن ننظر في الراجح فنأخذ به، والمرجوح ندعه، لأنه لا يمكن الجمع بين القولين.

الزوج، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الولي، والراجع الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد رُوي فيه حديث ^(١) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ^(٢).

(١) (ضعيف) أخرجه ابن جرير في تفسيره عند الآية، والدارقطني في "سننه" (٣٧١٨)، والبيهقي في الكبرى: (١٤٤٥٤)، وراجع المزيد في تحريجه في تفسير ابن كثير عند الآية. وقال البيهقي رحمته الله: وَرُويَ عَنِ ابْنِ هَيْعَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلَيْ عَقْدُ النِّكَاحِ الزَّوْجُ»، وَهَذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ وَأَبْنُ هَيْعَةَ غَيْرُ مُحْتَجٍّ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ وقد روي موقوفاً عن جمع من الصحابة كما في المصادر السابقة.

(٢) فائدة: قسم شيخ الإسلام رحمته الله الخلاف الواقع في التفسير إلى قسمين:

الأول: اختلاف التنوع.

الثاني: اختلاف التضاد.

وقد وقع هذان القسمان في تفسير السلف، إلا أن الثاني قليل.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. اهـ [راجع "مقدمة أصول التفسير"، و"مجموع الفتاوى": (٣٣٣/١٣)].

لكنه أشار إلى وقوع اختلاف التضاد في تفسيرهم في النادر بقوله: ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام. اهـ

فائدة: تعريف اختلاف التنوع واختلاف التضاد:

- اختلاف التنوع: هو ما وقع على كثيرين متفقين في الحقيقة. [راجع "أدب البحث والمناظرة" للشنقيطي (ص: ٤٨)، وراجع "أقسام اختلاف التنوع" لشيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم": (١٤٩/١)].

والعمل في اختلاف التنوع: هو أن تحمل الآية على جميع ما قيل فيها إذا كانت معان صحيحة غير متعارضة . [راجع مقدمة أصول التفسير لشيخ الإسلام].

وقال **رحمته الله**: وهذا القسم - الذي سميناه: اختلاف التنوع - كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد. اهـ. [راجع "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/ ١٥٢)].

- اختلاف التضاد: هما القولان المتنافيان بحيث لا يمكن القول بهما معاً ، فإذا قيل بأحدهما لزم منه عدم القول بالآخر. راجع "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/ ١٥١).

أسباب الاختلاف في التفسير المأثور:

قال شيخ الإسلام **رحمته الله**: أسباب الاختلاف في التفسير المأثور: فإن قال قائل قد اختلفوا في تفسير القرآن اختلافاً كثيراً ولو كان ذلك معلوماً عندهم عن الرسول **صلوات الله عليه وآله وسلم** لم يختلفوا فيقال الاختلاف الثابت عن الصحابة بل وعن أئمة التابعين في القرآن أكثره لا يخرج عن وجوه: -أحدها: أن يعبر كل منهم عن معنى الاسم بعبارة غير عبارة صاحبه فالمسمى واحد وكل اسم يدل على معنى لا يدل عليه الاسم الآخر مع أن كلاهما حق....

-الوجه الثاني: أن يذكر كل منهم من تفسير الاسم بعض أنواعه أو أعيانه على سبيل التمثيل للمخاطب لا على الحصر والإحاطة...

-الوجه الثالث: أن يذكر أحدهم لنزول الآية سبباً ويذكر الآخر سبباً آخر لا ينافي الأول، ومن الممكن نزولها لأجل السببين جميعاً أو نزولها مرتين مرة لهذا ومرة لهذا، وأما ما صح عن السلف أنهم اختلفوا فيه اختلاف تناقض، فهذا قليل بالنسبة إلى ما لم يختلفوا فيه كما أن تنازعهم في بعض مسائل السنة كـ بعض مسائل الصلاة والزكاة والصيام والحج والفرائض والطلاق ونحو ذلك لا يمنع أن يكون أن يكون أصل هذه السنن مأخوذاً عن النبي **صلوات الله عليه وآله وسلم** ،

ترجمة في القرآن

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح. وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى. وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بازائها. الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب. مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمةً كلمةً فيترجم (إنّا) ثم (جعلناه)، ثم (قرآنًا)، ثم (عربيًّا)، وهكذا. والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

وجملها منقولة عنه بالتواتر. اهـ مختصر أراجع مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (١) / (١٩١)، و"مقدمة أصول التفسير"، و"مجموع الفتاوى": (٣٣٣ / ١٣).

فائدة: قال شيخ الإسلام رحمته الله في "مجموع الفتاوى" (٣٦٢ / ١٣): الاختلاف في التفسير من أعظم أسباب الباطل التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه وفسروا كلام الله ورَسُولِهِ صلوات الله وسلامه عليه بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله. اهـ

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحقيقها معها وهي:

- أ-** وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بازاء حروف اللغة المترجم منها.
- ب-** وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات، وقال بعض العلماء:

إن الترجمة الحرفية يمكن تحقيقها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحقيقها في نحو ذلك - محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعا ^(١)، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.

(١) ترجمة القرآن ترجمة حرفية غير ممكنة كما ذكر المؤلف وغير جائزة: فأما كونها غير جائزة لأسباب:

الأول: أنها تحريف لمعاني القرآن الكريم حيث أن الأسلوب العربي في تركيب الكلمات لا يوافقه أسلوب آخر من اللغات الأخرى لا في التقديم ولا التأخير ولا من جهة حروف المعاني والتوكيد.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية، لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. (١)

الثاني: أنه يزول بها التأثير على النفوس الذي يجده القارئ لكتاب الله باللغة العربية.

الثالث: أنه لا تظهر به إعجاز القرآن وبلاغته، فإذا ذهب الإعجاز والبلاغة في آياته لم يكن القرآن آية ومعجزة يستدل بها على صدق نبوة محمد ﷺ.

الرابع: أن الله تعالى تحدى البشر أن يأتوا بآية من مثله فإذ فتح هذا الباب وترجم زال هذا الإعجاز. [راجع "فتاوى اللجنة الدائمة" (٤ / ١٦٢)، و"التفسير والمفسرون" (١ / ٢٠-٢١)]

قال ابن العربي رحمه الله في "أحكام القرآن" (٤ / ٨٨): قَالَ عَلَمَاؤُنَا: هَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ بِإِدَالِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِيهِ بِالْفَارِسِيَّةِ جَائِزٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا﴾ [فصلت: ٤٤]، كَذَا لِنَفْيِ أَنْ يَكُونَ لِلْعُجْمَةِ إِلَيْهِ طَرِيقٌ، فَكَيْفَ يُصْرَفُ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ. وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ النَّبِيَّانَ وَالْإِعْجَازَ إِنَّمَا يَكُونُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، فَلَوْ قُلِبَ إِلَى غَيْرِ هَذَا لَمَا كَانَ قُرْآنًا وَلَا بَيِّنَاتًا، وَلَا اقْتَضَى إِعْجَازًا. اهـ [راجع البرهان للزركشي (١ / ٤٦٤)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله في "اقتضاء الصراط المستقيم" (١ / ٥١٩): فأما القرآن: فلا يقرؤه بغير العربية، سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور، وهو الصواب الذي لا ريب فيه، بل قد قال غير واحد: إنه يمتنع أن يترجم سورة، أو ما يقوم به الإعجاز. اهـ

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله في "منهاج السنة النبوية": (٢ / ٦١٢): فَإِنَّهُ يُجَوِّزُ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثَ لِلْحَاجَةِ إِلَى الْإِفْهَامِ. اهـ

وقال في "الجواب الصحيح": (٢ / ٦٧): وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُجَوِّزُ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ وَالتَّعْبِيرِ كَمَا يُجَوِّزُ تَفْسِيرُهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا هَلْ يُقْرَأُ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ تِلَاوَةً كَمَا يُقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ فَجَمُّهُورُ الْعُلَمَاءِ مَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ. اهـ

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تجعل بديلا عن القرآن بحيث يستغني بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة، لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالما بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالما بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن. ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها، بحيث يكون مسلما مستقيما في دينه.

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رحمهم الله، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة، لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير. (١)
ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضا: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم حياة علي بن أبي طالب مع هذين رحمهم الله.

(١) قال السيوطي رحمهم الله في "الإتقان في علوم القرآن" (٤/ ٢٣٣): اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب والرواية عن الثلاثة نزره جدا وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر رحمهم الله للحديث ولا أحفظ عن أبي بكر رحمهم الله في التفسير إلا آثرا قليلا جدا لا تكاد تجاوز العشرة، وأما علي فروي عنه الكثير. اهـ

(١) علي بن أبي طالب عليه السلام :

هو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وزوج فاطمة عليها السلام، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم. وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

ولد قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بعشر سنين، وتربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلفه النبي صلى الله عليه وسلم في أهله، وقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»^(١)، نقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان:

النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذي بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

اشتهر عليه السلام بالشجاعة والذكاء مع العلم والزكاء^(٢) حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن^(٣) ومن أمثلة

(١) متفق عليه: روابخاي برقم: (٣٧٠٦)، ومسلم برقم: (٢٤٠٤).

(٢) قال الخليل في كتابه "العين": (٥ / ٣٩٤): الزكاة: الصلاح. تقول: رجل زكيّ [تقي].

(٣) (ضعيف): رواه أحمد في الفضائل (١١٠٠) بسند ضعيف فيه مؤمل بن إسماعيل، والبيهقي في المدخل (٧٨) بسند شديد الضعف فيه محمد بن الحسن بن كوثر [واه وقد كذب] راجع لسان الميزان. عن ابن المسيب، عن عمر رضي الله عنه قال: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن.

النحويين: قضية ولا أبا حسن لها^(١)، وروى عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت لبيل أو نهار.^(٢) وقال ابن عباس رحمهما الله: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به^(٣)، وروى عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب^(٤)، كان أحد أهل الشورى الذي رشحهم عمر رحمته الله لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن

(١) ذكره سيويه في "كتابه" ولم يعزه لعمر (٢٩٧ / ٢) وعزاها غيره من النحاة: قال الرضي في شرح "الكافية" ٢٦٠ / ١: (معنى قضية ولا أبا حسن لها): لا فيصل لها؛ إذ هو كان فيصلاً في الحكومات. اهـ وقال الصبان في "حاشيته على شرح الأشموني" لألفية ابن مالك (٢ / ٦): **قوله**: (قضية ولا أبا حسن لها) أي: هذه قضية ولا أبا حسن قاض لها وهو نثر من كلام عمر في حق علي رضي الله تعالى عنهما وصار مثلاً يضرب عند الأمر العسير. اهـ (٢) **(أثر صحيح)**. أخرجه ابن سعد: (٢ / ٢٥٧) من طريق معمر، عن وهب بن أبي دُبَيٍّ، عن أبي الطفيل، عن عليّ. وإسناده صحيح، رجاله ثقات جميعاً.

(٣) **(إسناده ضعيف)**: أسنده ابن عبد البر في الاستيعاب: ترجمة علي، وفي جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٨٥٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢ / ٤٠٧) من طريق: شريك عن ميسرة النهدي عن المنهال ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به... وشريك هو النخعي ضعيف.

(٤) ذكره ابن عطية بدون إسناد راجع "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز": (١ / ٤١)، فقال: فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب رحمته الله، ويتلوه عبد الله بن العباس رحمته الله، وهو تجرد للأمر وكمله وتبعه، وتبعه العلماء عليه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب رحمته الله. وقال ابن عباس رحمته الله: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب» اهـ.

عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيدا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة رحمته الله. (١)

(٢) عبد الله بن مسعود رحمته الله :

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأمه أم عبد كان ينسب إليها أحيانا (٢)، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا، وما بعدها من المشاهد.

(١) أهم الطرق التي روي فيها التفسير عن علي رحمته الله :

الطريق الأولى: هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني عن علي رحمته الله :
خرج من هذه الطريق البخاري وغيره، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٧ / ٨٥): قال علي بن المديني وعمرو بن علي الفلاس: أصح الأسانيد محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي رحمته الله. اهـ.

الطريق الثانية: ابن أبي الحسين عبد الله بن عبد الرحمن عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن علي رحمته الله : وهذه طريق صحيحة.

الطريق الثالثة: الزهري عن علي زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي رحمته الله : وهذا سند صحيح جليل حتى عدها بعضهم أصح الأسانيد مطلقاً كما في (مقدمة ابن الصلاح) ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهاً الطريقين السابقين نظراً لما ألصقه الضعفاء والكذابون بزين العابدين من الروايات الباطلة. راجع "كتاب التفسير والمفسرون" للذهبي المعاصر: (ص: ٩١).

(٢) قال ابن حجر رحمته الله كما في "فتح الباري" (٧ / ١٠٣): مَاتَ أَبُوهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَسْلَمَتْ أُمُّهُ وَصَحِبَتْ فَلِذَلِكَ نُسِبَ إِلَيْهَا أَحْيَانًا. اهـ.

تلقى من النبي ﷺ بضعا وسبعين سورة من القرآن^(١)، وقال له النبي ﷺ في أول الإسلام: «إنك لغلām معلم»^(٢) وقال: من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد^(٣)، وفي "صحيح البخاري": أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله^(٤)، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا

(١) روى البخاري: (٦ / ١٨٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: وَالله لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ بَضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَالله لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ. ومسلم بلفظ (٤ / ١٩١٢): قَرَأْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ.

(٢) روى أحمد. ط / الرسالة: (٦ / ٨٢): أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَرْعَى غَنًا لِعُتْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، هَلْ مِنْ لَبَنِ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَلَكِنِّي مُؤْتَمَنٌ، قَالَ: «فَهَلْ مِنْ شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ؟»، فَأَتَيْتُهُ بِشَاةٍ، فَمَسَحَ صُرْعَهَا، فَتَزَلَ لَبَنٌ، فَحَلَبَهُ فِي إِنَاءٍ، فَشَرِبَ، وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ لِلصُّرْعِ: «اقْلِصْ»، فَقَلَصَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَّمَنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالَ: فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: «يُرْحَمُكَ اللهُ، فَإِنَّكَ غُلِيمٌ مُعَلَّمٌ». -وفي لفظ-: «إنك غُلَامٌ مُعَلَّمٌ»، قال: فأخذ من فيه سبعين سورة. [حسنه شيخنا الوادعي في الصحيح المسند برقم (٨٤١)].

(٣) رواه أحمد برقم: (٤٢٥٥) وحسنه شيخنا الوادعي في الصحيح المسند برقم (٨٥٢).

(٤) تقدم تحريجه عند قوله: (وَالله لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ بَضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً).

أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه،^(١) وكان ممن خدم النبي ﷺ فكان صاحب نعليه وظهره ووساده^(٢) حتى قال أبو موسى الأشعري رحمته الله: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما نرى عبدالله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ. ومن أجل ملازمته النبي ﷺ تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة رحمته الله: ما أعرف أحداً أقرب هدياً وسمتاً ودلاً^(٤) بالنبي ﷺ من ابن أم عبد. ^(٥)

بعثه عمر بن الخطاب رحمته الله إلى الكوفة، ليعلمهم أمور دينهم، وبعث عماراً رحمته الله أميراً وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ، فأقتدوا بهما، ثم أمره عثمان رحمته الله على الكوفة، ثم عزله، وأمره بالرجوع إلى المدينة، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة. ^(٦)

(١) رواه مسلم برقم: (٢٤٦٢).

(٢) روى البخاري برقم: (٣٧٤٢): عن أبي الدرداء رحمته الله أنه قال: أَوَكَيْسَ عِنْدَكُمْ ابْنُ أُمِّ عَبْدِ صَاحِبِ النَّعْلَيْنِ وَالْوَسَادِ، وَالْمِطْهَرَةِ.

(٣) رواه البخاري (٣٧٦٣)، ومسلم (٢٤٦٠).

(٤) قال ابن الجوزي في "كشف المشكل من حديث الصحيحين": (١ / ٣٨٨): قَالَ أَبُو عبيد: السمت: حسن الهيئة والمنظر في مذهب الدين وكَيْسَ من الزينة، وَلَكِنْ يكون لصاحبه هيئة أهل الخير ومنظرهم. وَالهْدْيُ والذل من السكينة. وَالْوَقَارُ فِي الهيئة والمنظر وَالشَّائِل. اهـ

(٥) رواه البخاري (٣٧٦٢).

(٦) مقدار ما روى عنه: قال السيوطي رحمته الله: وَأَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ فَرَوِيَ عَنْهُ أَكْثَرُ مِمَّا رَوَى عَنْ عَلِيٍّ. اهـ أي مما صح. [راجع "الإتقان": (٤ / ٢٣٤)].

(٣) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛

هو ابن عم الرسول الله صلى الله عليه وسلم ولد قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي صلى الله عليه وسلم (١)، وضمه النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره

* وقد نقل علم ابن مسعود أهل الكوفة.

قال شيخ الإسلام رحمته الله في "مجموع الفتاوى" (١٣ / ٣٤٧): وَأَمَّا "التفسير" فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ ابْنِ عَبَّاسٍ كُمُجَاهِدٍ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَعِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَطَاوُوسٍ وَأَبِي الشَّعْثَاءِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَمْثَالِهِمْ؛ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكُوفَةِ مِنْهُمْ أَصْحَابُ ابْنِ مَسْعُودٍ. اهـ

* أشهر الطرق التي روى بها تفسير عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

الطريقة الأولى: الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذه الطرق من أصح الطرق عنه وقد اعتمدها البخاري في صحيحه، والطبري في تفسيره.

الطريق الثانية: مجاهد عن أبي معمر عبد الله بن سخرية عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذه طريق صحيحة وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه، والطبري في تفسيره.

الطريق الثالثة: الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذه طريق صحيحة وقد اعتمد عليها البخاري في "صحيحه".

الطريق الرابعة: إسماعيل بن عبد الرحمن السدي عن مرة الهمداني عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذه طريق محتج بها وأكثر الطبري من الإعتماد عليها في تفسيره. [راجع "التفسير والمفسرون"

[٨٧ / ١]

(١) أمه: لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية، أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين

رضي الله عنهن. قال ابن عبد البر رحمته الله: يكنى أبا عَبَّاسٍ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين،

وَكَانَ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ إِذْ تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، هَذَا قَوْلُ الْوَاقِدِيِّ وَالزُّبَيْرِ. قَالَ الزُّبَيْرِ

وقال: «اللهم علمه الحكمة»^(١)، وفي رواية: «الكتاب»^(٢) وقال له حين وضع له وضوءه: اللهم فقه في الدين.^(٣) فكان بهذا الدعاء المبارك حبر الأمة في نشر التفسير والفقه^(٤)، حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله، فنال بذلك مكانا عاليا حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو إلى مجالسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول^(٥)،

وغيره من أهل العلم بالسير والخبر: ولد عبد الله بن العباس في الشعب قبل خروج بني هاشم منه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين. اهـ [الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ٩٣٣)].

(١) رواه البخاري برقم: (٣٧٥٦).

(٢) رواه البخاري برقم: (١٤٣) ومسلم برقم: (٦٣١٨).

(٣) متفق عليه. رواه البخاري برقم: (١٤٣)، ومسلم برقم: (٦٣١٨) ولفظ (في الدين) تفرد بها البخاري، وقد روى أحمد بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: (٣٧٥٦)، «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»، وهذا اللفظ اشتهر على الألسنة حتى عزاه بعضهم إلى الصحيحين ولم يصب، والحديث عند أحمد.

(٤) وقال الحافظ رحمته الله: كان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن. اهـ [«الفتح» (٣٧٥٦)].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله في الشرح الممتع: وهو أولى من يؤخذ قوله في التفسير إلا أن يعارضه من هو أرجح منه. اهـ [الشرح الممتع (١/ ٢٩٠)].

(٥) رواه عبدالرزاق برقم في "مصنفه": (٨١٢٣)، بسنده عن الحسن البصري عن عمر وهذا إسناد منقطع بين الحسن وعمر، ورواه معمر بن راشد في "جامعه": (٢٠٤٢٨)، وأحمد في "فضائل الصحابة": (١٥٥٥)، والحاكم في "المستدرک": (٦٢٩٨) وغيرهم من طريق عبد

ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهما ما رآه، فقال عمر رضي الله عنه: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أأنت كذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك، واستغفره إنه كان توابا، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم^(١)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لنعم ترجمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد. ^(٢) أي ما كان نظيرًا له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم. ^(٣)، وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس رضي الله عنه، فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم

الرزاق عن معمر عن الزهري عن عمر به. وهذا أيضًا إسناد منقطع بين الزهري وعمر، راجع تعليق الذهبي على "المستدرک".

(١) رواه البخاري برقم: (٤٩٧٠).

(٢) (أثر صحيح) رواه أحمد في "فضائل الصحابة": (١٨٦٣)، والحاكم في "المستدرک": (٦٢٨٩)، والبيهقي في "المدخل" (١٢٥)، من طرق عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عاشره من أحد. وصححه إسناده شيخ الإسلام، وقال الذهبي: على شرط الشيخين. [راجع تعليق الذهبي على "المستدرک"، وصححه الأثر الحافظ في "الفتح" (١٢٧/٧)].

قال شيخ الإسلام رحمته الله: هذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة - أي: نعم ترجمان القرآن.. [راجع "مقدمة في أصول التفسير"].

(٣) راجع "مقدمة في أصول التفسير" لشيخ الإسلام.

(١)، وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقها وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع (٢).

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم: (أي وال على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه)، فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت،

(١) (ضعيف). رواه أبو زرعة الدمشقي في "تاريخه" (ص: ٦١٦)، والفاكهي في "أخبار مكة" برقم: (١٦٣٠)، بأسانيد فيها ضعف وجهالة، وابن جرير في "تفسيره": (٣/ ٢٣٣)، وفيه جابر الجعفي ضعيف جداً.

(٢) (صحيح). أخرجه الفاكهي في "أخبار مكة" برقم: (١٦٢٨)، وأحمد في "فضائل الصحابة" برقم: (١٩٢٩)، وابن المبارك في "الزهد": برقم: (١١٧٥)، والآجري في "الشرعية" (برقم: ١٧٥٤)، وأبو الشيخ في "طبقات المحدثين" (: ٨/٤)، وأبونعيم في معرفة الصحابة برقم: (٤٢٧٦)، والخطيب في "تاريخ بغداد": (١/ ٥٢٥) من طرق عن عبد الجبار بن الورد عن عطاء به، وعبد الجبار وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وأبوداود، وقال البخاري يخالف في بعض حديثه لذلك قال ابن حجر في ترجمته في "التقريب": صدوق يهيم، فهو حسن الحديث كما رجح الشيخ الألباني كما في "الصحيحة": (٥٣٧). وقد توبع عبد الجبار بعبد المؤمن بن خالد الحنفي عن عطاء به كما في "سيرة السلف" لقوام السنة (١/ ٤٨٤)، وهو محتج به قال عنه الحافظ في "التقريب": لا بأس به. وصحح الشيخ الألباني له في مواضع ووصفه بالصدق في مواضع راجع "الصحيحة" (٤٥٧) و"الضعيفة" (١٤/ ٩٦٩). ورواه ابن سعد في طبقاته: (٢/ ٢٨٠) من طريق ابن جريج عن عطاء بلفظ مقارب.

ولا سمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت^(١)،
ولاه عثمان على موسم الحج سنة (٣٥هـ)، وولاه علي على البصرة، فلما قتل مضى
إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمان وستين
عن إحدى وسبعين سنة.^(٢)

(١) (صحيح)، أخرجه أحمد في "فضائل الصحابة" (برقم: ١٩٣٤ ١٩٤٨)، وابن عبد
البر في "جامع بيان العلم وفضله" (برقم: ٧٣١) ولفظه مطابق للفظ المؤلف، وأبو نعيم في
"الحلية" (٣٢٤/١)، والحاكم في "المستدرک" (برقم: ٦٢٩٠ ٦٢٩٢) من طرق عن
الأعمش عن أبي وائل وقد صحح الأثر الذهبي في تعليقه على "المستدرک" (برقم:
٦٢٩٢)، وله طريق أخرى حسنة عند ابن سعد في "المتمم لطبقات الصحابة" (برقم:
٥٨) من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي وائل به..

(٢) قال ابن عبد البر رحمه الله: ومات عبد الله بن عباس بالطائف سنة ثمان وستين في أيام ابن
الزبير، وكان ابن الزبير، قد أخرجه من مكة إلى الطائف، ومات بها وهو ابن سبعين سنة،
وقيل ابن إحدى وسبعين سنة. وقيل: ابن أربع وسبعين سنة، وصلى عليه محمد ابن
الحنفية، وكبر عليه أربعاء، وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة. اهـ [الاستيعاب في معرفة
الأصحاب (٣/ ٩٣٣)].

نسب الكذابون الكثير إلى ابن عباس عليه السلام في التفسير:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: و معلوم أن في كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب
شيء كثير من رواية الكلبي عن أبي صالح وغيره. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (٦ / ٣٨٩)].
وقال السيوطي رحمه الله: وأوهى طرقه - أي: تفسير ابن عباس - طريق الكلبي عن أبي صالح
عن ابن عباس، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة
الكذب وكثيراً ما يخرج منها الثعلبي والواحدي. اهـ [راجع "الإتقان" (٢ / ٥٣٥)].

أشهر الطرق التي روى بها تفسير ابن عباس عليه السلام:

- **الطريق الأولى:** عبدالله بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح بن حدير عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. هذه من أشهر الطرق عن ابن عباس. وقد نقل عن أحمد رحمته الله أنه قال: بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل فيها رجل إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً. اهـ

وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله: اعتمد عليها البخاري في صحيحه كثيراً. اهـ

وهذه الطريق أعلت من وجوه:

العلة الأولى: أن علي بن طلحة لم يسمع التفسير من ابن عباس، بل لم يلقه، نص على ذلك غير واحد منهم: أحمد وأبو حاتم وابن حبان وأبو أحمد الحاكم وابن منده وابن كثير وغيرهم. بل قد قال الخليلي رحمته الله: أجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه - يعني التفسير - من ابن عباس. اهـ

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه وإن كان لم يسمع منه إلا أنه أخذه عن الثقات من تلاميذ ابن عباس.

قال الحافظ رحمته الله: علي لم يلق ابن عباس لكنه إنما حمل عن ثقات أصحابه. اهـ

قال السيوطي رحمته الله: واحتملنا حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإن كان لم يلقه لأنه عند أهل العلم بالأسانيد إنما أخذ الكتاب الذي فيه هذا عن مجاهد وعكرمة. اهـ

العلة الثانية: أنها من طريق عبدالله بن صالح كاتب الليث.

فيه خلاف وخلاصته: أنه ضعيف يصلح في الشواهد والمتابعات.

وأما قول أحمد السابق فإنه لم يصح عنه، ففي سنده الحسين بن فهم، قال الدارقطني: ليس بالقوي وكذلك قال الحاكم كما في "اللسان".

وأما قول الحافظ ابن حجر: أنه اعتمد عليها البخاري في صحيحه: فهو إنما جعلها في التراجع.

ولا يسمى علي بن أبي طلحة بل يقول: قال ابن عباس أو يذكر عن ابن عباس، وفي هذا إشارة منه إلى ضعفها عنده، من وجهين: أنه إنما جعلها في التراجم، وأنه لم يصرح بالسند ولا مرة واحدة، ويزاد عليها أنه يعبر عنها في بعض الأحيان بصيغة ذكر. وأما قولهم أنه أخذها من ثقات أصحاب ابن عباس فإنه إن سُلِّم بذلك لم تسلم من العلة الثانية وهي ضعف عبدالله بن صالح.

العلة الثالثة: أنها يروى من طريقها أشياء منكورة عن ابن عباس.

منها: ما أخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات": واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة": (٢/٢٠١) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ﴾ [النور: ٣٥] يقول: الله سبحانه وتعالى هادي أهل السموات والأرض، ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ مثل هدهاء في قلب المؤمن، كما يكاد الزيت الصافي يضيئ قبل أن تمسه النار، فإذا مسته ازداد ضوءاً على ضوء. وهذا خبر منكر.

قال شيخ الإسلام رحمته الله معلقاً عليه: وهذا التفسير هو تفسير الوالبي وأما ثبوت ألفاظه عن ابن عباس ففيها نظر لأن الوالبي أي علي بن أبي طلحة لم يسمعه من ابن عباس ولم يدركه بل هو منقطع وإنما أخذ عن أصحابه. اهـ [بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" (٥/٥٢١)].

وقال ابن القيم رحمته الله: أَمَّا حِكَايَتُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ بِمَعْنَى هَادٍ فَعُمِدَتُهُ عَلَى التَّفْسِيرِ الَّذِي رَوَاهُ النَّاسُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْوَالِبِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَفِي ثُبُوتِ أَلْفَاظِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْوَالِبِيَّ لَمْ يَسْمَعْهَا مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَهُوَ مُنْقَطِعٌ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَكُونَ مَنقُولاً عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِالْمَعْنَى، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَلَيْسَ مَقْصُودُهُ بِهِ نَفْيَ حَقِيقَةِ النُّورِ عَنِ اللَّهِ... اهـ [تختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة (ص: ٤٢٦)].

ومنها ما أخرجه الطبري في مواضع من "تفسيره": (٨/١١٥) (١٩/٥٨، ١٣١) (٢٢/٤٨) (٢٣/١١٧) (٢٦/١٤٧) والبيهقي في "الأسماء والصفات": بهذا الإسناد

مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿المص﴾، ﴿كهيعص﴾، ﴿طه﴾، ﴿يس﴾، ﴿ص﴾، ﴿طس﴾، ﴿حم﴾، ﴿ق﴾، ﴿ن﴾، ونحو ذلك قال: قسم أقسمه الله تعالى، وهو من أسماء الله عز وجل. وهذا خبر منكر بمرة.

فالراجح ضعفها وعدم الاعتماد عليها. وأنها صالحة في الشواهد. قال أبو أحمد الحاكم رحمته الله: ليس ممن يعتمد على تفسيره الذي يروي عن معاوية عنه. اهـ [راجع ترجمته من تاريخ الإسلام (٩٣٢/٣)].

وقد رجح انقطاعها أيضا الشيخ الألباني كما في مواضع من كتبه منها الصحيحة برقم: (١٥٧٦، ٢٠٥١، ٢٥٥٢)، وشيخنا مقبل بن هادي الوادعي عليها رحمة الله.

- الطريق الثانية: ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس.

وهذه الطريق قد أجمع أهل العلم أن ابن أبي نجيح لم يسمع التفسير عن مجاهد وإنما سمعه بواسطة ابن أبي أبزى، وابن أبي نجيح ثقة وهو في التفسير إمام. والواسطة التي سمع بها التفسير عن مجاهد وهو ابن أبي أبزى اسمه القاسم، وهو ثقة مجمع على ثقته تفرد بسماع التفسير عن مجاهد.

قال الفسوي رحمته الله: سئل علي، سمع ابن أبي نجيح التفسير من مجاهد؟، قال: لا. قال سفيان رحمته الله: لم يسمعه من أحد من مجاهد إلا القاسم ابن أبي أبزى أملاه عليه وأخذ كتابه الحكم وليث وابن أبي نجيح.

وقد اعتمد أهل العلم هذه الطريق منهم الثوري والخليلي، واعتمدها البخاري في صحيحه كما في تفسير سورة البقرة، حديث رقم: (٤٥٣١) آية رقم: (٢٣٤)، وفي تفسير سورة الأنفال حديث رقم: (٤٦٤٦)، آية رقم: (٢٠).

وقد قال شيخ الإسلام رحمته الله: تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير، بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب في التفسير أصح من تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد إلا أن يكون نظيره في الصحة. اهـ [راجع "مجموع الفتاوى" (٤٠٩/١٧)].

- الطريق الثالثة: النضر بن عربي عن عكرمة عن ابن عباس.

المشتهرون بالتفسير من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

(أ) أهل مكة: وهم أتباع ابن عباس كمجاهد^(١) وعكرمة^(١)،

وهذه طريق صحيحة، النظر ثقة وعكرمة إمام.

- الطريق الرابع: سعيد بن جبير عن ابن عباس.

تروى من طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال السيوطي رحمته الله: هذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يخرج منها الفريابي والحاكم في مستدركه. اهـ

والصحيح/ أنها ليست على شرط الشيخين، لأن عطاء لم يخرج له مسلم وأخرج له البخاري متابعه، وهي ضعيفة لأن عطاء اختلط في آخره، و لم ينقل أن قيساً ممن سمع منه قبل الاختلاط.

وهناك طريق أخرى عن يحيى بن عبدالله بن بكير عن ابن لهيعة عن عطاء بن دينار الهذلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذه طريق ضعيفة من أجل ابن لهيعة.
وأصح طريق لتفسير سعيد بن جبير عن ابن عباس: الطريق التي اعتمدها الطبري في تفسيره عن حمد بن العلاء عن أبي كريب عن وكيع بن الجراح عن سفيان الثوري عن الأعمش عن المنهال بن عمرو الأسدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وهذا سند رجاله ثقات وفيهم أئمة والأعمش وإن عنعن فتدليسه يُحتمل.
ونكتفي بهذا، وابن عباس تلاميذه كثر ونقل عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة.
قال السيوطي رحمته الله: وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة وفيه روايات

وطرق مختلفة. اهـ. [راجع "الإتقان" (٢ / ٥٣٢)].

(١) سترجم له المؤلف قريباً.

(١) هو أبو عبد الله عكرمة البربري المدني مولى ابن عباس (أصله من البربر بالمغرب) روى عن مولاه، وعلى بن أبي طالب، وأبي هريرة، وغيرهم.

قال الذهبي رحمته الله: العلامة، الحافظ، المفسر، أبو عبد الله القرشي مولاهم، المدني، البربري الأصل. قال الشعبي رحمته الله: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة.

وقال قتادة رحمته الله: أعلم الناس بالحلال والحرام: الحسن، وأعلمهم بالمناكب: عطاء، وأعلمهم بالتفسير: عكرمة. اهـ [مختصر من "سير أعلام النبلاء" ط/ الرسالة (٥/ ١٢)].

قال ابن القيم رحمته الله: وطاوس وعكرمة أعلم أصحاب ابن عباس. فإن عكرمة كان مولاه مصاحباً له وكان يقوده على العلم، وكان طاوس خاصاً عنده يجتمع به كثيراً، ويدخل عليه مع الخاصة. اهـ ["إغاثة اللهفان" (١/ ٢٨٧)].

نقم عليه أمور وجرحه بعضهم وقد دافع عنه الأئمة وروى عنه جلهم قال ابن منده رحمته الله: وأما حال عكرمة في نفسه، فقد عدله أمة من نبلاء التابعين، فمن بعدهم، وحدثوا عنه، واحتجوا بمفاريده في الصفات والسنن والأحكام، روى عنه زهاء ثلاث مئة رجل من البلدان منهم زيادة على سبعين رجلاً من خيار التابعين ورفعائهم، وهذه منزلة لا تكاد توجد لكثير من التابعين على أن من جرحه من الأئمة لم يمسك من الرواية عنه، ولم يستغنوا عن حديثه، وكان يتلقى حديثه بالقبول، ويحتج به قرناً بعد قرن، وإماماً بعد إمام إلى وقت الأئمة الأربعة الذين أخرجوا الصحيح، وميزوا ثابته من سقيمته، وخطأه من صوابه، وأخرجوا روايته، وهم البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، فأجمعوا على إخراج حديثه، واحتجوا به على أن مسلماً كان أسوأهم رأياً فيه، وقد أخرج عنه مقروناً وعدله بعدما جرحه. اهـ [راجع للمزيد ترجمته في "تهذيب التهذيب"، و"التفسير والمفسرون"]

وعطاء بن أبي رباح^(١).

(ب) أهل المدينة: وهم اتباع أبي بن كعب، كزيد بن أسلم^(٢) وأبي العالية^(١)، ومحمد بن كعب القرظي^(٢).

(١) هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين (٢٧هـ)، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة: (١١٤هـ) على أرجح الأقوال. كان **رحمته الله** أسود، أعور، أفتس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك.

روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وغيرهم. وحديث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيها، عالماً، كثير الحديث. وانتهد إليه فتوى أهل مكة، قال فيه أبو حنيفة **رحمته الله**: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء، وقال الأوزاعي **رحمته الله**: مات عطاء يوم مات وهو أَرْضَى أهل الأرض عند الناس. وقال سلمة بن كهيل **رحمته الله**: ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة: عطاء، ومجاهد، وطاووس. وقال ابن حبان **رحمته الله**: كان من سادات التابعين فقهاً، وعلماً، وورعاً. [راجع "سير أعلام النبلاء" ط / الرسالة (٧٨/٥)، والتفسير والمفسرون].

(٢) هو أبو أسامة - أو أبو عبد الله - زيد بن أسلم، العدوي المدني الفقيه المفسر، مولى عمر بن الخطاب **رحمته الله**. كان من كبار التابعين الذين عُرفوا بالقول في التفسير والثقة فيما يروونه، قال فيه الإمام أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائي: ثقة كانت وفاته سنة (١٣٦هـ).

قال عنه الذهبي **رحمته الله**: الإمام، الحجة، القدوة، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَدَوِيُّ، الْعُمَرِيُّ، الْمَدَنِيُّ، الْفَقِيهُ. وقال البخاري **رحمته الله**: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَجْلِسُ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا يَجْلِسُ وَالرَّجُلُ إِلَى مَنْ يَنْفَعُهُ فِي دِينِهِ.

قال الذهبي **رحمته الله**: لَزِيدٍ تَفْسِيرٌ، رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ. [مختصر من "سير أعلام النبلاء" ط / الرسالة (٣١٦/٥)].

(ج) أهل الكوفة: وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة وعلقمة^(٣)، والشعبي^(١).

(١) هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي مولاهم، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين. روى عن عليّ، وابن مسعود، وابن عباس. وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير. قال فيه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم: ثقة. وقال اللالكائي: مجمع على ثقته. وقال فيه العجلي: تابعي ثقة. من كبار التابعين. وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة. قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي دَاوُدَ: وَلَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَ الصَّحَابَةِ أَعْلَمَ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَبَعْدَهُ: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. قَالَ الْبُخَارِيُّ، وَغَيْرُهُ: مَاتَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ. [مختصر من "سير أعلام النبلاء" ط / الرسالة (٢٠٧/٤)، والتفسير والمفسرون].

(٢) هو أبو حمزة - أو أبو عبد الله - محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني، من حلفاء الأوس. روى عن عليّ، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وروى عن أبي بن كعب بالواسطة. وقد اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع، وكثرة الحديث، وتأويل القرآن.

قال ابن سعد رحمته الله: كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وقال العجلي رحمته الله: مدني وتابعي، ثقة، رجل صالح. عالم بالقرآن. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال ابن عون رحمته الله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي. وقال ابن حبان رحمته الله: كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، قال الذهبي رحمته الله: كان من أئمة التفسير. وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة: (١١٨هـ)، (ثمانى عشرة ومائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

[مختصر من "سير أعلام النبلاء" ط / الرسالة (٢٠٧/٤)، و"التفسير والمفسرون"].

(٣) هو علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، النخعي الكوفي، ولد في حياة رسول الله ﷺ روى عن عمر، وعثمان، وعليّ، وابن مسعود، وغيرهم. وهو من أشهر رواة عبد الله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. وكان رحمته الله ثقة مأموناً، على جانب عظيم من الورع

فلنترجم حياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.

١ - مجاهد:

هو مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته

والصلاح. قال فيه الإمام أحمد رحمته الله : ثقة من أهل الخير. اهـ وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمداني رحمته الله : كان علقمة من الربانيين. قال الذهبي رحمته الله : فقيه الكوفة، وعالمها، ومقرئها، الإمام، الحافظ، المجود، المجتهد الكبير، أبو شبل علقمة بن قيس بن عبد الله قال أبو نعيم: مات سنة (٦١ هـ)، وعمره تسعون سنة.

[مختصر من "سير أعلام النبلاء" ط / الرسالة (٤ / ٥٣)، "التفسير والمفسرون" (١ / ٨٩).]

(١) هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة. روى عن عمر، وعلي، وابن مسعود، ولم يسمع منهم. وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم. قال الشعبي رحمته الله : أدركت خمسمائة من الصحابة. وقال العجلي رحمته الله : سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة. وقال مكحول رحمته الله : ما رأيت أفقه منه. وقال ابن عيينة رحمته الله : كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه. وقال ابن شبرمة: سمعت الشعبي يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، ولا حدثني رجل بحديث فأحببت أن يعيده علي. وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبي ثقة. وقال أبو إسحاق الحبال: كان واحد زمانه، قال الذهبي رحمته الله : الإمام، علامة العصر. [مختصر من "سير أعلام النبلاء" ط الرسالة (٤ / ٢٩٥)، و "التفسير والمفسرون" (١ / ٩١).]

إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها ^(١)، وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ^(٢)، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيراً ما ينقل عنه في صحيحه.

وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومائة، عن ثلاث وثمانين سنة. ^(٣)

(١) (صحيح) أخرجه ابن أبي شيبه: (٣٠٢٨٧)، بسند صحيح، وابن جرير، ت/ شاكر: (١/ ٩٠) والدارمي: (١١٦٠)، والحاكم: (٣١٠٥) بسند حسن: لأجل محمد بن إسحاق. وقال الذهبي: على شرط مسلم! ومحمد بن إسحاق لم يرو له مسلم إلا في المتابعات.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره، ت. شاكر: (١/ ٩١)، بسند جيد رجاله ثقات عدا عبيد الله بن يوسف الجبيري وثقه ابن حبان وقال عنه الذهبي: ثقة صاحب حديث، وقال عنه الحافظ صدوق. [راجع ترجمته في "تاريخ الإسلام" (٢٠٤/١٩)، و"تهذيب التهذيب"، و"تقريب التهذيب"].

(٣) الإمام المفسر مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي رحمته الله:

مكانته في التفسير: ذكر المؤلف جملة من كلام أهل العلم في بيان إمامته في التفسير: قال شيخ الإسلام رحمته الله: ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها؛ ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به؛ ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره. [راجع: (مقدمة التفسير)].

أبرز من نقل تفسيره:

٢ - قتادة:

ابن أبي نجيح : وقد نقل الإتفاق أنه لم يسمع منه التفسير وإنما أخذه بواسطة القاسم بن أبي بزة وهو ثقة وقد قبلها أهل العلم لكون الواسطة عُلِّمت، كما تقدم.

- سالم الأفتس عن مجاهد: سالم ثقة وقد أكثر الطبري في تفسيره الرواية من طريقه عن مجاهد.
- منصور بن المعتمر عن مجاهد: منصور حافظ ثبت مجمع على ثقته وعبادته، وروايته عن مجاهد مخرجة في الصحيحين. وهناك غيرهم كثير...

- ما نقيم على مجاهد: نقيم على مجاهد أخذه للإسرائيليات.

قال ابن سعد رحمته الله: أخبرنا أبو بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما لهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب. ["الطبقات": (٥ / ٤٦٧)].

- أنكر عليه بعض آرائه بالتفسير تعلق بها أهل التأويل للصفات. قال الذهبي رحمته الله: وَلِجَاهِدِ أَقْوَالٌ وَغَرَائِبٌ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفْسِيرِ تُسْتَنْكَرُ. اهـ ["سير أعلام النبلاء" ط / الرسالة (٤) / ٤٥٥].

من ذلك: ما نقله ابن جرير بأسانيد صحيحة. عن مجاهد: أنه فسّر قوله تعالى في الآيتين: [٢٢، ٢٣] من سورة القيامة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ .. بقوله: (تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شيء!) وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئاً قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه، في مسألة رؤية الله تعالى. ومع هذه الزلات إلا أنها لم تؤثر على تفسير مجاهد، بل قد اعتمده الأئمة. قال شيخ الإسلام رحمته الله: اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره. اهـ [راجع "مقدمة في أصول التفسير"].

وقد تقدم نقل الإجماع على إمامته والاحتجاج به.

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري ولد أكمه أي أعمى سنة إحدى وستين، وجد في طلب العلم، وكان له حافظه قوية حتى قال في نفسه: ما قلت لمحدث قط أعد لي، وما سمعت أذ ناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من يتقدمه أما المثل فلعل^(١)، وقال: هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئاً إلا حفظه^(٢)، وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومائة، عن ستة وخمسين سنة.^(٣)

(١) (صحيح عن أحمد) كما في "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم: (٧ / ١٣٤): [ترجمة قتادة]،

قال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول سمعت أحمد بن حنبل وذكر قتادة فأطنب في ذكره...

(٢) (صحيح عن أحمد) كما في "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (٧ / ١٣٥): قال ابن أبي

حاتم: حدثنا محمد بن حمويه بن الحسن، قال: سمعت أبا طالب أحمد بن حميد، قال: سمعت

أحمد بن حنبل يقول: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وقرئ عليه

صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها وكان سليمان التيمي وأيوب يحتاجون إلى حفظه

يسألونه، وكان من العلماء كان له خمس وخمسون سنة يوم مات. اهـ

(٣) قتادة بن دعامة السدوسي البصري أبو الخطاب: قال فيه الذهبي رحمته الله: حافظ العَصْرِ،

قُدْوَةُ الْمَفْسِّرِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ، أَبُو الْخَطَّابِ السَّدُوسِيُّ، الْبَصْرِيُّ، الصَّرِيرُ، الْأَكْمَةُ.

كَانَ مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ، وَمَنْ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي قُوَّةِ الْحِفْظِ. رَوَى عَنْهُ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ حُجَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ إِذَا بَيَّنَّ السَّمَاعَ، فَإِنَّهُ مُدَلِّسٌ مَعْرُوفٌ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَرَى الْقَدْرَ - نَسَأَلَ اللَّهَ الْعَفْوَ -.

وَمَعَ هَذَا، فَمَا تَوَقَّفَ أَحَدٌ فِي صِدْقِهِ، وَعَدَالَتِهِ، وَحِفْظِهِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يَعْزُرُ أُمَمَالَهُ.

قَالَ مَعْمَرٌ: أَقَامَ قَتَادَةُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَقَالَ لَهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ: ارْجُلْ يَا أَعْمَى، فَقَدْ أَنْزَفْتَنِي. اهـ. [أثر ثابت عن قتادة يرويه عنه عبد الرزاق عن معمر به، كما في "التاريخ الكبير" للبخاري: (١٨٦/٧)، و"الطبقات" لابن سعد: (٢٣٠/٧)]. قَالَ مَعْمَرٌ: وَسَمِعْتُ قَتَادَةَ يَقُولُ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ سَمِعْتُ فِيهَا شَيْئًا. اهـ. [أثر صحيح رواه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢٥٥/١) عن معمر عن قتادة به]. [وراجع ترجمته في "تاريخ الإسلام"، و"سير أعلام النبلاء" ترجمة قتادة، و"البداية والنهاية" حوادث سنة: (١١٧)].

أبرز من نقل عنه التفسير:

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: من أوثق الناس في قتادة، إلا أنه قد نص يحيى بن سعيد القطان، أنه لم يسمع التفسير من قتادة. كما في "مقدمة الجرح والتعديل" (ص: ٢٤٠)؛ لذلك رده بعض أهل العلم لانقطاعه وأكثر أهل العلم على قبوله. وقد نقل ابن سعد رحمته الله: عَنْ قُرَيْشِ بْنِ أَنَسٍ: «حَلَفَ لِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ أَنَّهُ مَا كَتَبَ عَنْ قَتَادَةَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنَّ أَبَا مَعْمَرٍ كَتَبَ إِلَيَّ أَنِ اكْتُبَ لَهُ تَفْسِيرَ قَتَادَةَ»، قَالَ: فَقَالَ أَيُّ قَتَادَةَ: «تُرِيدُ أَنْ تَكْتُبَ عَنِّي؟» قَالَ: «فَلَمْ أَرْزُ بِهِ». اهـ أي: حتى أذن لي. "الطبقات الكبرى" (٧/٢٧٣).

وقد رجح ابن معين تفسير سعيد عن قتادة على تفسير شيبان عن قتادة، مع أن شيبان ممن ثبت سماعه من قتادة التفسير مما يدل على صحة تفسير قتادة عندهم فقد روى البغدادى بسنده أن عباس بن محمد، قال: سألت يحيى بن معين: أيما أحب إليك، تفسير سعيد عن قتادة، أو تفسير شيبان عن قتادة؟ قال: تفسير سعيد. اهـ [راجع "تاريخ بغداد" (١٥/٦٧٣)].

وقال أبو داود رحمته الله: سَمِعْتُ أَحْمَدَ يَقُولُ: كَانَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ يَحْفَظُ التَّفْسِيرَ عَنْ قَتَادَةَ. اهـ [راجع سؤالات أبي داود للإمام لأحمد: (ص: ٣٣٦) رقم (٤٩٢)].

وقال أبو داود رحمته الله: سَمِعْتُ أَحْمَدَ قِيلَ لَهُ تَفْسِيرُ، قَتَادَةَ: قَالَ إِنْ كَتَبْتَهُ عَنْ يَزِيدَ بْنِ زُرَيْعٍ عَنْ سَعِيدٍ، فَلَا تَبَالِي أَنْ لَا تَكْتُبَهُ عَنْ أَحَدٍ. سؤالات أبي داود للإمام أحمد: (ص: ٣٤٧) رقم: (٥٣٢).

وقد روى ابن أبي حاتم، وابن جرير الطبري تفسير قتادة، من طريق يزيد بن زريع، عن سعيد به.

- معمر بن راشد عن قتادة: إمام حافظ له أوهام، طعن مالك في روايته عن قتادة. وقد دافع شيخ الإسلام عنه فقال: وقاتدة ثقة حافظ في نفسه، ورواية معمر عنه صحيحة، وإن كان مالك أنكر ذلك، لأجل القدر. اهـ [راجع "الرد على البكري" (١/٥٧٧)]. ورواية معمر عن قتادة يخرجها عبد الرزاق في "تفسيره"، ومن طريق عبد الرزاق خرج تفسير قتادة الطبري وابن أبي حاتم والبغوي.

- شيان بن عبد الرحمن التميمي: ثقة ثبت إمام، وقد روى تفسير قتادة من طريقه ابن جرير في تفسيره، وابن أبي حاتم في "تفسيره"، والبغوي في "تفسيره". قال الخطيب البغدادي: أَخْبَرَنَا محمد بن عبد الواحد، قال: أَخْبَرَنَا محمد بن العباس. قال: أَخْبَرَنَا أحمد بن سعيد، قال: حَدَّثَنَا عباس بن محمد، قال: سمعت يحيى بن معين، يقول: شيان بن عبد الرحمن أحب إلي من معمر في قتادة. وَأَخْبَرَنَا أحمد بن أبي جعفر، قال: أَخْبَرَنَا محمد بن عدي البصري، في كتابه، قال: حَدَّثَنَا أبو عبيد محمد بن علي الآجري، قال: قيل لأبي داود: شيان أحب إليك في قتادة من معمر؟ قال: نعم. اهـ [تاريخ بغداد. ت بشار: (١٠/٣٧٤)].

ما أنكر على قتادة: قد أنكر على قتادة أمران:

- الأمر الأول: قوله ببدعه القدر.

- الأمر الثاني: التدليس.

لكن دافع عنه الذهبي فقال: هو حجة بالإجماع، إذا بين السماع فإنه مدلس معروف بذلك، وكان يرى القدر نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله عذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء ٢٣]، ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثرت صوابه وعلم تحريه للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يغفر

القرآن محكم ومتشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى:

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ (١) لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، ومعنى هذا الإحكام (٢) الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ومعنى هذا التشابه أن القرآن

له زلل ولا نضلل ونطرحه وننسى محاسنه، نعم لا تقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك. اهـ [راجع ترجمته في "السير"]. وقد تقدم تزكية شيخ الإسلام له.

(١) قال ابن كثير **رَحِمَهُ اللَّهُ** في "تفسيره": ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن: ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾، أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** ومجاهد. اهـ

(٢) قال الجصاص **رَحِمَهُ اللَّهُ** في "أحكام القرآن": (٢/ ٢٨٠): الإحكام الذي عم به الجميع هو الصواب والإتقان اللذان يفضل بهما القرآن كل قول. اهـ

كله يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة والغايات الحميدة^(١): ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله

تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ^(٢) وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. ومعنى هذا الإحكام^(٣)

(١) قال الزركشي رحمته الله في "الإتقان في علوم القرآن": (٣ / ٣): المراد بإحكامه: إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه، ويتشابه: كونه يشبه بعضه بعضا في الحق والصدق والإعجاز. اهـ

قال الشوكاني رحمته الله في "فتح القدير" للشوكاني: (١ / ٣٦٤): والمراد بالتشابه بهذا المعنى: أنه يشبه بعضه بعضا في الصحة، والفصاحة، والحسن، والبلاغة. اهـ

(٢) قال الشوكاني رحمته الله في "فتح القدير" (١ / ٣٦١)، قوله: هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ أَي: أصله الذي يعتمد عليه، ويرد ما خالفه إليه. اهـ

(٣) قال ابن كثير رحمته الله كما في "تفسيره" ط. العلمية: (٢ / ٤): آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، أَي بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتٌ الدلالة لا التباس فيها على أحد، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخَرُ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ فَقَدْ اهْتَدَى وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ. اهـ، وذهب بعض أهل العلم كالقرطبي والشوكاني إلى أن الإحكام الخاص أوسع من ذلك فهو شامل لكل ما علم معناه إما بذاته أو بغيره:

أن يكون معنى الآية واضحاً جلياً، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]،

قال القرطبي رحمه الله في "تفسيره": (٩ / ٤): اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة، فقال جابر بن عبد الله، وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما: المحكمات من أي القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه، قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور. قلت: هذا أحسن ما قيل في المتشابه. اهـ وقال الشوكاني رحمه الله في فتح "القدير": (١ / ٣٦٠): إن المحكم: هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة، إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره والمتشابه: ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره. وقال في (١ / ٣٦٤): ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه، بأن يكون معروفاً في لغة العرب، أو في عرف الشرع، أو باعتبار غيره، وذلك كالأمر المجمل التي ورد بيانها في موضع آخر من الكتاب العزيز، أو في السنة المطهرة، أو الأمور التي تعارضت دلالته، ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها في موضع آخر من الكتاب أو السنة، أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة، عند أهل الإنصاف، فلا شك ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه ومن رعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب، فاشدد يدك على هذا فإنك تنجو به من مضايق ومزالق وقعت للناس في هذا المقام... اهـ

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه^(١): أن يكون معنى الآية مشتبهاً خفياً بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.^(٢) مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿بَلْ

(١) تقدم كلام ابن كثير أن التشابه الخاص المقصود به: أن لا يكون معنى الآية واضحاً جلياً لأكثر الناس. قال السعدي رحمته الله في "تفسيره" (ص: ١٢٢): ﴿وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أي: يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة. اهـ

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المتشابه ما لا يعلم معناه إلى الله كما تقدم من كلام القرطبي وكذلك الشوكاني فإنه قصر التشابه الخاص على ما ستأثر الله بعلمه فلا يعلمه أحد من الخلق، ككيفيات صفاته، وحقيقة الروح، ومعاني الحروف المقطعة في فواتح بعض السور...؛ حيث قال في "تفسيره" (١ / ٣٦٠): وَالْمُتَشَابِهُ: مَا لَا يَتَّضِحُ مَعْنَاهُ، أَوْ لَا تَظْهَرُ دَلَالَتُهُ لَا بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ وَلَا بِاعْتِبَارِ غَيْرِهِ. اهـ

(٢) قال الشيخ العثيمين رحمته الله: فإن قلت: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [آل عمران: ٧]، فإن هذا يقتضي

أن في القرآن آيات متشابهات لا يعلم تأويلهن إلا الله؟!

قلنا: الجواب أن للسلف في الوقف في هذه الآية قولين:

أحدهما: الوقف عند قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، وهو قول جمهور السلف والخلف، وبناء عليه يكون المراد بالتأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، الحقيقة التي يؤول الكلام إليها، لا التفسير الذي هو بيان المعنى. فتأويل آيات الصفات على هذا هو حقيقة تلك الصفات وكنهها، وهذا من الأمور الغيبية التي لا يدركها العقل ولم يرد بها السمع فلا يعلمها إلا الله.

الثاني: الوصل فلا يقفون على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، وهو قول جماعة من السلف والخلف، وبناء عليه يكون المراد بالتأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، التفسير الذي هو بيان المعنى. وهذا معلوم للراسخين في العلم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

"تقريب التدمرية": (١/ ٧٠). قال الشنقيطي رحمته الله بعد ترجيحه مذهب الجمهور: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رحمته الله: قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو: هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ يَقْصِدُ الْقَوْلَ الثَّانِي فَإِنَّ تَسْمِيَتَهُمْ رَاسِخِينَ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُحْكَمِ الَّذِي يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ جَمِيعٌ مَنْ يَفْهَمُ كَلَامَ الْعَرَبِ، وَفِي أَيِّ شَيْءٍ هُوَ رُسُوخُهُمْ إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الْجَمِيعُ. انْتَهَى مِنْهُ بَلْفُظُهُ.

قَالَ مُقَيَّدُهُ عَمَّا اللَّهُ عَنْهُ أَيُّ الشَّنْقِيطِيِّ: يُجَابُ عَنْ كَلَامِ شَيْخِ الْقُرْطُبِيِّ الْمَذْكُورِ بِأَن رُسُوخَهُمْ فِي الْعِلْمِ هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَنْتَهُونَ حَيْثُ انْتَهَى عِلْمُهُمْ وَيَقُولُونَ فِيمَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى عِلْمِ حَقِيقَتِهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا بِخِلَافِ غَيْرِ الرَّاسِخِينَ فَإِنَّهُمْ

يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴿ [المائدة: ٦٤]، أن الله يدين ممائلين لأيدي المخلوقين ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضاً حين يقول: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]. ويقول في موضع آخر: ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨]. ومثاله فيما يتعلق برسول الله، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤]، ظاهره أن النبي ﷺ كان شاكاً فيما أنزل إليه.

(موقف الراسخين في العلم والزائعين من المتشابه)

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائعين منه بينه الله تعالى فقال في الزائعين: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧].

يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَنَسْبَةُ الْعِلْمِ إِلَيْهِ أَسْلَمُ. اهـ

قال الشوكاني رحمته الله: وَمِنْ جُمْلَةِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ الْقَائِلُونَ بِالْعُطْفِ: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَدَحُهُمْ بِالرُّسُوحِ فِي الْعِلْمِ، فَكَيْفَ يَمْدَحُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ وَيُجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّ تَرْكَهُمْ لَطَلَبِ عِلْمٍ مَا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِهِ، وَلَا جَعَلَ خَلْقَهُ إِلَى عِلْمِهِ سَبِيلًا هُوَ مِنْ رُسُوحِهِمْ، لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ هُمُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، وَنَاهِيكَ هَذَا مِنْ رُسُوحٍ. اهـ [فتح القدير " للشوكاني (١ / ٣٦٣)].

وقال في الراسخين في العلم:

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيضلُّون، ويضلُّون (١) وأما الراسخون في العلم يؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض لأنه من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المحكم ليكون الجميع محكماً.

ويقولون في المثال الأول: إن الله تعالى يدين حقيقتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذات لا تماثل ذوات المخلوقين (٢)، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) قال ابن كثير في "تفسيره": قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ضَلَالٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ أَي: إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُحَرِّفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَيُنْزِلُوهُ عَلَيْهَا؛ لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَصْرِفُونَهُ، فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ دَافِعٌ لَهُمْ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: الْإِضْلَالِ لِاتِّبَاعِهِمْ، إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُونَ عَلَى بَدْعَتِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ. وقوله تعالى: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي: تَحْرِيفِهِ عَلَى مَا يُرِيدُونَ. اهـ

(٢) وهذه قاعدة عظيمة وأصل عظيم في باب الصفات: [وهي: القول في الصفات كالقول في الذات]، فكما أن له ذات لا تماثل الذوات، فكذلك له صفات لا تماثل صفات الخلق.

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاها بتقدير الله عز وجل، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده، أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدَّرِهِ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدَّرِهِ، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة.

ويقولون في المثال الثالث: إن النبي ﷺ لم يقع منه شك فيما أنزل إليه، بل هو أعلم الناس به، وأقواهم يقينا كما قال الله تعالى في نفس السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤] المعنى إن كنت في شك منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم وأعبد الله.

ولا يلزم من قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، أن يكون الشك جائزاً على الرسول ﷺ، أو واقعا منه. (١)

قال شيخ الإسلام رحمه الله: يقال: القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثل شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذات. "التدمرية" (ص: ٤٣).

(١) اختلف أهل العلم في توجيه هذه الآية:

فذهب بعضهم إلى أن ظاهر الخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره ممن شك في دعوته: قال الشوكاني رحمه الله في تفسيره: قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ، كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. قَالَ أَبُو عَمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ

عَبْدُ الْوَاحِدِ الزَّاهِدُ: سَمِعْتُ الْإِمَامَيْنِ ثَعْلَبًا وَالْمُبَرَّدَ يَقُولَانِ: مَعْنَى فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْكَافِرِ: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ: فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ يَعْنِي: مُسْلِمِي أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُهُ الْأَوْتَانُ يَعْرِفُونَ لِلْيَهُودِ بِالْعِلْمِ وَيَقْرُونَ بِأَتَمِّهِمْ أَعْلَمَ مِنْهُمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ أَنْ يُرْشِدَ الشَّاكِّينَ فِيمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ أَنْ يَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِنَّهُمْ سَيُخْبِرُونَهُمْ بِأَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنَّ هَذَا رَسُولُهُ. اهـ

ومنه من قال إنه خطاب لكل من حصل منه الشك فلا يقال إنه لا يتناوله صلى الله عليه وسلم كما هو ظاهر الآية، ولا يلزم منه حصول الشك في حقه صلى الله عليه وسلم بل هو بلغ أعلى درجات اليقين. قال شيخ الإسلام رحمته الله: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، يَتَنَاوَلُ غَيْرُهُ حَتَّى قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: الْخُطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ. أَيْ هُمُ الَّذِينَ أُريدَ مِنْهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا لِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الشَّكِّ وَهُوَ لَمْ يَرِدْ مِنْهُ السُّؤَالُ إِذْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَكٌّ. وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ مُحَاطَبًا وَمُرَادًا بِالْخُطَابِ بَلْ هَذَا صَرِيحُ اللَّفْظِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْخُطَابَ لَمْ يَتَنَاوَلْهُ. وَلِأَنَّ لَيْسَ فِي الْخُطَابِ أَنَّهُ أُمِرَ بِالسُّؤَالِ مُطْلَقًا بَلْ أُمِرَ بِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ شَكٌّ وَهَذَا لَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ شَكٌّ. وَلَا أَنَّهُ أُمِرَ بِهِ. اهـ- [مجموع الفتاوى: (١٦) / (٣٢٥)].

فإن قيل: فلما وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يحصل منه الشك؟
يقال لأمر منها:

- بيان أن أهل الكتاب يعلمون صدق دعوته لكن أكثرهم مكابرون.
- إرشاد لكل من حصل منه الشك أن يسأل من صدق من أهل الكتاب.
- بيان اليقين الذي عليه النبي صلى الله عليه وسلم حيث أنه لم يسأل؛ لأنه لم يحصل منه ذرة شك في صدق ما يدعوه إليه.

قال ابن القيم رحمته الله: فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَاقِعًا وَلَا مُمَكِّنًا فَمَا مَقْصُودُ الْخُطَابِ وَالْمُرَادُ بِهِ؟ قِيلَ: الْمَقْصُودُ بِهِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى مُنْكَرِي النُّبُوتِ وَالتَّوْحِيدِ، وَأَتَمُّهُمْ مُقْرُونَ بِذَلِكَ لَا

ألا ترى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، هل يلزم منه أن يكون الولد جائزاً على الله تعالى أو حاصلاً؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلاً، ولا جائزاً على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٢-٩٣].^(١) ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:

يُحَدِّثُونَهُ وَلَا يُنْكِرُونَهُ وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ بِذَلِكَ، وَأَرْسَلَ مَلَائِكَتَهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ بِوَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، فَمَنْ شَكَّ فِي ذَلِكَ فَلْيَسْأَلْ أَهْلَ الْكِتَابِ، فَأُخْرِجَ هَذَا الْمَعْنَى فِي أَوْجَزِ عِبَارَةٍ وَأَدْهَكَ عَلَى الْمَقْصُودِ، بَأَنْ جُعِلَ الْخُطَابُ لِرَسُولِهِ الَّذِي لَمْ يَشْكُ قَطُّ وَلَمْ يَسْأَلْ قَطُّ وَلَا عَرَضَ لَهُ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ، وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا الْخُطَابَ بَدَا لَكَ عَلَى صَفَحَاتِهِ: مَنْ شَكَّ فَلْيَسْأَلْ فَرَسُولِي لَمْ يَشْكُ وَلَمْ يَسْأَلْ. اهـ. [أحكام أهل الذمة: (١/ ١٠٥)].

(١) قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]: اختلف العلماء في معنَى: ﴿إِنْ﴾، في هذه الآية على أقوال أشهرها. أنها شَرْطِيَّةٌ، واختاره غير واحدٍ، وَمَنْ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ، وَالَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهَا شَرْطِيَّةٌ، اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِذَلِكَ الْوَلَدِ. وهذا اختاره السعدي فقال: لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقيادا للأمر المحبوبة لله، ولكنني أول المنكرين لذلك، فعلم بذلك بطلانه. اهـ.

وقال بَعْضُهُمْ: فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِلَّهِ جَازِمِينَ بِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ.

ورجح هذا المعنى ابن جرير وابن كثير والشوكاني.

وقالت جماعة آخرون: إِنَّ لَفْظَةَ: ﴿إِنْ﴾ فِي الْآيَةِ نَافِيَةٌ. وَالْمَعْنَى: مَا كَانَ لِلَّهِ وَلَدٌ، وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهَا نَافِيَةٌ فَمَعْنَى قَوْلِهِ: فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ: الْأَوَّلُ - وَهُوَ أَقْرَبُهَا -: أَنْ

[١٤٧]، أن يكون الامتراء واقعاً من الرسول ﷺ؛ لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، ومن المعلوم أنهم لم يصدوا النبي ﷺ عن آيات الله، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظن ما لا يليق بالرسول ﷺ. (١)

المعنى: مَا كَانَ لِلَّهِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِلَّهِ الْمُنْزِهِينَ لَهُ. قال ابن كثير: رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. اهـ.
ورجحه الشنقيطي، وانتصر له وأبطل ما سواه. راجع أقوال أهل العلم في تفاسيرهم عند الآية.

(١) قال الشوكاني رحمه الله: وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرِينَ﴾، خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْإِمْتِرَاءِ: الشُّكُّ، نَهَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الشُّكِّ فِي كَوْنِهِ مِنْ رَبِّهِ، أَوْ فِي كَوْنِ كِتَابِهِمُ الْحَقُّ مَعَ عِلْمِهِمْ، وَعَلَى الْأَوَّلِ هُوَ تَعْرِضٌ لِلْأُمَّةِ، أَيُّ: لَا يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ مِنَ الْمُتَرِينَ، لِأَنَّهُ ﷺ لَا يَشُكُّ فِي كَوْنِ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

قال الشنقيطي رحمه الله: وَالْمُتَرِي: هُوَ الشَّاكُّ؛ لِأَنَّهُ مُفْتَعِلٌ مِنَ الْمُرِيَةِ وَهِيَ الشُّكُّ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ. وَالْمُرَادُ نَهْيُ غَيْرِهِ عَنِ الشُّكِّ فِي الْقُرْآنِ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ أَيْمَانًا أَوْ كُفُورًا﴾، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الآية، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ ﷺ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُخَاطِبُهُ لِيُوجِّهَ الْخِطَابَ إِلَى غَيْرِهِ فِي ضَمَنِ خِطَابِهِ ﷺ. اهـ.

راجع "فتح القدير" للشوكاني: (١ / ١٧٩)، "أضواء البيان" (٢ / ٣).

فإن قيل: لما وجه الخطاب للنبي ﷺ مع أنه معصوم من ذلك؟

أنواع التشابه في القرآن

التشابه في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي: وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفية لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمته الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به

قيل: لأمر منها: أن يكتب له الأجر العظيم على امتثال ما أمر به والإنتهاء عما نهى عنه: قال شيخ الإسلام رحمته الله: كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِّينَ﴾ سئل الله عليه وسلم وفي قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ سئل الله عليه وسلم وَنَحْوِ ذَلِكَ: إِنَّ الْخُطَابَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ. أَيْ غَيْرُهُ قَدْ يَكُونُ مُتَمَرِّبًا وَمُطِيعًا لِأَوْلِيكَ فَنَهَى وَهُوَ لَا يَكُونُ مُتَمَرِّبًا وَلَا مُطِيعًا لَهُمْ. وَلَكِنْ بِتَقْدِيرٍ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ أَيْضًا مُخَاطَبٌ بِهَذَا وَهُوَ مِنْهَى عَنْ هَذَا. فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ نَهَاَهُ عَمَّا حَرَّمَهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْقَوْلِ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ. وَبَنَهَى اللَّهُ لَهُ عَنْ ذَلِكَ وَطَاعَتِهِ اللَّهُ فِي هَذَا اسْتَحَقَّ عَظِيمَ الثَّوَابِ وَلَوْ لَا النَّهْيُ وَالطَّاعَةُ لَمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ. وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْأَمُورُ الْمُنْهَى يَمْنُ يُشَكُّ فِي طَاعَتِهِ وَيَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَعِصِيَ الرَّبَّ أَوْ يَعِصِيَهُ مُطْلَقًا وَلَا يُطِيعُهُ. بَلْ اللَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ وَيَأْمُرُ الْأَنْبِيَاءَ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ مَا أَطَاعُوهُ فِيهِ قَدْ أَمَرَهُمْ بِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ. اهـ

"مجموع الفتاوى" (١٦ / ٣٢٦).

واجب، والسؤال عنه بدعة. اهـ^(١)، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النوع الثاني: نسبي : وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوماً للراسخين في العلم دون غيرهم^(٢)، وهذا النوع يُسأل عن استكشافه وبياناه؛ لإمكان الوصول إليه، [إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس^(٣)]، قال الله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾

(١) (صح عن مالك)، وصح أيضاً عن شيخه ربيعة. [راجع "الأسماء والصفات" للبيهقي برقم: (٨٦٧)].

(٢) قال شيخ الإسلام رحمته الله في "مجموع الفتاوى" (١٧ / ٤٠٠): نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي آيَةٍ مُعَيَّنَةٍ بَلْ قَدْ يُشْكِلُ عَلَى هَذَا مَا يَعْرِفُهُ هَذَا، وَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِعَرَابَةِ اللَّفْظِ، وَتَارَةً لِاشْتِبَاهِ الْمَعْنَى بِغَيْرِهِ، وَتَارَةً لِشُبُهَةِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ تَمْنَعُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَتَارَةً لِعَدَمِ التَّدْبِيرِ التَّامِّ، وَتَارَةً لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ. اهـ

(٣) قاعدة عظيمة: قال شيخ الإسلام رحمته الله في "مجموع الفتاوى" (١٣ / ٢٨٥): إِنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ لَمْ يَمْتَنِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا قَالَ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يُعْلَمُ مَعْنَاهُ وَلَا قَالَ قَطُّ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنْ الْأُئِمَّةِ الْمُتَّبُوعِينَ: (إِنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُهَا رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله وسلم وَلَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ جَمِيعُهُمْ)، وَإِنَّمَا قَدْ يَنْتَوْنَ عِلْمَ بَعْضِ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ وَهَذَا لَا رَيْبَ فِيهِ. اهـ

وقال في "مجموع الفتاوى": (١٧ / ٣٩٩): وَبِالْجُمْلَةِ: فَالِدَّلَالُ الْكَثِيرَةُ تُوجِبُ الْقَطْعَ بِطُلَانِ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: (إِنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا الرَّسُولُ وَلَا غَيْرُهُ). اهـ

[النحل: ٨٩]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، حيث اشتبّه على أهل التعطيل^(١)، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وأدعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، واعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة^(٢)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، حيث اشتبّه على الوعيدية^(٣)، ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمداً مخلد في النار، وطرّدوا ذلك في

(١) المعطلة لقب يطلق على من عطل الله مما يستحقه من الأسماء والصفات، إما كلياً كالجهمية، أو جزئياً كالمعتزلة والأشاعرة وشبهتهم إن إثباتها يقتضي مماثلة المخلوق بالخالق.
(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمّه الله: الأصل في الصفات وهو: أن يوصف الله بها وصف به نفسه وبها وصفه به رسوله إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل كما جمع الله تعالى بينهما في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
فقلوه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: نفي متضمن لكمال صفاته مبطل لمنهج أهل التمثيل.
وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: إثبات لأسمائه وصفاته وإبطال لمنهج أهل التحريف والتعطيل.

فثبت ما أثبتته الله لنفسه ونفي ما نفى الله عن نفسه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل. اهـ "تقريب التدمرية" (ص: ١٧).

(٣) الوعيدية: هم الخوارج والمعتزلة يقولون بوجوب إنفاذ الوعيد، وأن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب؛ فهو مخلد في النار. وقالوا: إن الله توعد العاصين بالنار والعذاب، فيجب

جميع أصحاب الكبائر، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى. (١)

إنفاذ هذا الوعيد على الله، وهو لا يخلف الميعاد. وعقيدة أهل السنة: أن مرتكب الكبيرة تحت المشيئة.

(١) وقد خرج أهل العلم الوعيد في هذه الآية: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ على أوجه:

الأول: قال الشنقيطي رحمه الله: أن قوله: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾، أي إذا كان مُسْتَحِلًّا لِقَتْلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا لِأَنَّهُ مُسْتَحِلٌّ ذَلِكَ كَافِرًا. اهـ [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] (ص: ٦٨).

الثاني: قال ابن كثير رحمه الله: وَمَعْنَى هَذِهِ الصِّيغَةِ أَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ عَلَيْهِ، وَكَذَا كُلُّ وَعِيدٍ عَلَى ذَنْبٍ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ مُعَارَضٌ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تَمْنَعُ وَصُولَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا يُسَلِّكُ فِي بَابِ الْوَعِيدِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ. اهـ

قال ابن القيم رحمه الله: هَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا ذُكِرَ فِيهِ الْمُقْتَضِي لِلْعُقُوبَةِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ مُقْتَضِي الْحُكْمِ وَجُودُهُ، فَإِنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتِمُّ بِوُجُودِ مُقْتَضِيهِ وَانْتِفَاءِ مَانِعِهِ، وَغَايَةُ هَذِهِ النُّصُوصِ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ كَذَا سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ وَمُقْتَضٍ لَهَا، وَقَدْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى ذِكْرِ الْمَوَانِعِ، فَبَعْضُهَا بِالْإِجْمَاعِ، وَبَعْضُهَا بِالنَّصِّ، فَالْتَوْبَةُ مَانِعٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَالتَّوْحِيدُ مَانِعٌ بِالنُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ الَّتِي لَا مَدْفَعَ لَهَا، وَالْحَسَنَاتُ الْعَظِيمَةُ الْمَاحِيَةُ مَانِعَةٌ، وَالْمَصَائِبُ الْكِبَارُ الْمُكَفِّرَةُ مَانِعَةٌ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدُّنْيَا مَانِعٌ بِالنَّصِّ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعْطِيلِ هَذِهِ النُّصُوصِ فَلَا بُدَّ مِنْ إِعْمَالِ النُّصُوصِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

وَمِنْ هَاهُنَا: قَامَتِ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ اعْتِبَارًا بِمُقْتَضِي الْعِقَابِ وَمَانِعِهِ وَإِعْمَالًا لِأَرْجَحِهَا. اهـ [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين] (١ / ٤٠٠).

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، حيث اشتبه على الجبرية^(١)، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري.^(٢) والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يخرجون هذه

الثالث: قال ابن كثير رحمته الله: إن المراد بالخُلُودُ هُوَ الْمُكُثُ الطَّوِيلُ، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله وسلم: «أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ». اهـ.

الرابع: أن الآية خرجت مخرج التهديد والتغليظ في الوعيد زجراً عن هذا الذنب وليست على ظاهرها:

قال الشنقيطي رحمته الله: أَنَّ الْآيَةَ لِلتَّغْلِيظِ فِي الزَّجْرِ ذَكَرَ هَذَا الْوَجْهَ الْخَطِيبُ وَالْأَلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا، وَعَزَاهُ الْأَلُوسِيُّ لِبَعْضِ الْمُحَقِّقِينَ. اهـ. [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] (ص: ٦٨).

(١) الجبرية: هم الذين يقولون إن العبد مجبور على أفعاله لا اختيار له، ولا يقدر على الفعل أصلاً، وأن الله تعالى جبر العباد على الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية. [راجع "الملل والنحل" (١ / ٧٩)].

(٢) الفعل الاختياري: كآدائه للطاعات.

وغير الاختياري: كارتعاش المريض والعاجز أو أن يكره على فعل، أو قول.

فالأول هو محاسب عليه، والثاني غير محاسب ولا مؤاخذ عليه.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَجِدُ تَفَرُّقَهُ بَدِيهَةً: بَيْنَ قِيَامِ الْإِنْسَانِ وَقُعُودِهِ وَصَلَاتِهِ وَجَهَادِهِ وَزَنَاهُ وَسِرْقَتِهِ، وَبَيْنَ ارْتِعَاشِ الْمُفْلُوجِ وَانْتِفَاضِ الْمُحْمُومِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْأَوَّلَ قَادِرٌ عَلَى الْفِعْلِ مُرِيدٌ لَهُ مُخْتَارٌ، وَأَنَّ الثَّانِيَّ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَيْهِ وَلَا مُرِيدٌ لَهُ وَلَا مُخْتَارٌ. وَالْمُحْكِيُّ عَنْ جَهْمٍ وَشَيْعَتِهِ "الْجَبْرِيَّةُ" أَنَّهُمْ زَعَمُوا: أَنَّ جَمِيعَ أَفَاعِيلِ الْعِبَادِ قِسْمٌ وَاحِدٌ وَهُوَ قَوْلُ ظَاهِرِ الْفَسَادِ

الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكما لا اشتباه فيه.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه

لو كان القرآن كله مُحَكَّمًا لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقا وعملا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابهًا لفات كونه بيانًا، وهُدًى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكنَّ الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وأخر متشابهات امتحانًا للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وَبِمَا بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْفُرْقَانِ انْقَسَمَتِ الْأَفْعَالُ: إِلَى اخْتِيَارِيٍّ وَاضْطِرَارِيٍّ وَاخْتَصَّ الْمُخْتَارُ مِنْهَا بِإِثْبَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَيْهِ. اهـ. [مجموع الفتاوى " (٨ / ٣٩٤)].

وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرا من المنحرفين في العقائد والأعمال، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة. (١)

موهم التعارض في القرآن

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداها مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداها مثبتة لشيء والأخرى نافية فيه. (٢)

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون إحداها كذبا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حكمي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وإذا ثبت النسخ كان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وجب عليك التوقف، وتكل الأمر إلى عالمه. (١)

-
- (١) قال الشوكاني رحمه الله: وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ لُورُودَ الْمُتَشَابِهِ فِي الْقُرْآنِ فَوَائِدَ، مِنْهَا: أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ مَعَ وُجُودِهَا فِيهِ مَزِيدٌ صُعُوبَةٍ وَمَشَقَّةٌ، وَذَلِكَ يُوجِبُ مَزِيدَ الثَّوَابِ لِلْمُسْتَخْرِجِينَ لِلْحَقِّ وَهُمْ الْأَثَمَةُ الْمُجْتَهِدُونَ. اهـ [فتح القدير "لشوكاني: (١) / ٣٦٤].
- (٢) التعارض لغة: يطلق على معانٍ منها التقابل والتماثل والتدافع. اصطلاحاً: تقابل الدليلين على سبيل الممانعة. [راجع "البحر المحيط" (٦ / ١٠٩)، و"إرشاد الفحول" (ص ٢٧٣)].

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، بينوا الجمع في ذلك. ومن أجمع ما رأيت في هذا الموضوع كتاب "دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمته الله تعالى.

(١) قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال القرطبي رحمته الله في "تفسيره": ﴿اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: تَفَاوُتًا وَتَنَاقُضًا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَتَقَادُةَ وَابْنِ زَيْدٍ. وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا اخْتِلَافُ أَلْفَاظِ الْقِرَاءَاتِ وَالْأَفَاطِ الْأَمْثَالِ وَالذَّلَالَاتِ وَمَقَادِيرِ السُّورِ وَالْآيَاتِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِلَافَ التَّنَاقُضِ وَالتَّفَاوُتِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى لَوْ كَانَ مَا تُخْبِرُونَ بِهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَا اخْتِلَافَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ مُتَكَلِّمٍ يَتَكَلَّمُ كَلَامًا كَثِيرًا إِلَّا وَجَدَ فِي كَلَامِهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، إِمَّا فِي الْوَصْفِ وَاللَّفْظِ، وَإِمَّا فِي جَوْدَةِ الْمَعْنَى، وَإِمَّا فِي التَّنَاقُضِ، وَإِمَّا فِي الْكُذْبِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْآنَ وَأَمَرَهُمْ بِتَذَكُّرِهِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ فِيهِ اخْتِلَافًا فِي وَصْفٍ وَلَا رَدًّا لَهُ فِي مَعْنَى، وَلَا تَنَاقُضًا وَلَا كِذْبًا فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ مِنَ الْغُيُوبِ وَمَا يَسْرُونَ. اهـ

قال "الجبصاص في أحكام القرآن" (٣ / ١٨٢): فَإِنَّ الْإِخْتِلَافَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: اخْتِلَافُ تَنَاقُضٍ: بِأَنْ يَدْعُو أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ إِلَى فَسَادِ الْآخَرِ. وَاخْتِلَافُ تَفَاوُتٍ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُ بَلِيغًا وَبَعْضُهُ مَرْدُودًا سَاقِطًا.

وَهَذَانِ الصَّرْبَانِ مِنَ الْإِخْتِلَافِ مَنْفِيَانِ عَنِ الْقُرْآنِ وَهُوَ إِحْدَى ذَلَالَاتِ إِعْجَازِهِ لِأَنَّ كَلَامَ سَائِرِ الْفُصَحَاءِ وَالْبَلَّغَاءِ إِذَا طَالَ مِثْلُ السُّورِ الطُّوَالِ مِنَ الْقُرْآنِ لَا يَحُلُّو مِنْ أَنْ يَخْتَلِفَ اخْتِلَافَ التَّفَاوُتِ.

وَالثَّالِثُ اخْتِلَافُ التَّلَاوُمِ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُتَلَائِمًا فِي الْحُسْنِ كَاخْتِلَافِ وَجُوهِ الْقِرَاءَاتِ وَمَقَادِيرِ الْآيَاتِ وَاخْتِلَافِ الْأَحْكَامِ فِي النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ. اهـ [راجع للمزيد "البرهان في علوم القرآن" (٢ / ٤٥)].

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيان والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين، قوله تعالى في الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.^(١) ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]، ففي الآيتين الأوليين نفى الألوهية عما سوى الله تعالى، وفي الأخيرين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك: أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].^(٢)

(١) راجع للتوفيق بين الآيتين. ["دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" (ص: ٧)].

(٢) **فائدة:** قال ابن القيم رحمته الله: قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾: إنهم إنما عبدوا المسميات، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة، كاللاتي والعزى، وهي

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [أعراف: ٢٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ففي الآية الأولى نفى أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق.

والجمع بينهما: أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعا بالفحشاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. (١)

مجرد أسماء كاذبة باطلة، لا مسمى لها في الحقيقة. فإنهم سموها آلهة. وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها. وليس لها من الإلهية إلا مجرد الأسماء، لا حقيقة المسمى. فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها. وهذا كمن سمى قشور البصل لحما، وأكلها، فيقال له: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه. وكمن سمى التراب خبزا، وأكله. يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز، بل هذا النفي أبلغ في نفي إلهية آلهتهم. فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه. وما الحكمة ثم إلا مجرد الاسم. فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى. اهـ. [بدائع الفوائد " (١٩/١)].

(١) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ يُتَوَهَّمُ خِلَافُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ ظَاهِرِ آيَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [١٦-١٧].

ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفا.

القسم

القسم: بفتح القاف والسين، اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعْظَم بالواو، أو إحدى أخواتها، ^(١) وأدواته ثلاث:

[الواو] - مثل قوله تعالى: ﴿قَوَّيْتُ لَكَ الْأَرْضَ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذريات: ٢٣] ويجذف معها العامل وجوبا، ولا يليها إلا اسم ظاهر.

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الأول: وَهُوَ أَظْهَرُهَا أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أَي: بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ: ﴿فَفَسَقُوا﴾، أَي: بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا إِشْكَالَ فِي الْآيَةِ أَصْلًا.

الوجه الثاني: أَنَّ الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أَمْرٌ كَوْنِيٌّ قَدَرِيٌّ لَا أَمْرٌ شَرْعِيٌّ، أَي: قَدَرْنَا عَلَيْهِمُ الْفَسْقَ بِمَشِيتِنَا، وَالْأَمْرُ الْكَوْنِيُّ الْقَدَرِيُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ دِينِيٌّ فَظَهَرَ أَنَّ الْأَمْرَ الْمُنْفِيَّ غَيْرَ الْأَمْرِ الْمُثْبِتِ.

الوجه الثالث: أَنَّ مَعْنَى: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا: أَي: كَثَرْنَا هُمْ حَتَّى بَطَرُوا النِّعْمَةَ فَفَسَقُوا، وَيَدُلُّ هَذَا الْمَعْنَى الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ سُؤَيْدِ بْنِ هُبَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَيْرُ مَالِ امْرِئٍ مَهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سَكَّةٌ مَأْمُورَةٌ فَقَوْلُهُ: «مَأْمُورَةٌ» أَي: كَثِيرَةُ النَّسْلِ، وَهِيَ مُحَلٌّ الشَّاهِدِ. اهـ [راجع "دفع إيهام الاضطراب" (ص: ١٠١)].

(١) القسم اسم مصدر من أقسم إقسامًا: إذا حلف. كذا في «المصباح»، وسمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ يمين صاحبه عند التحالف.

[والباء] - مثل قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١]، ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرون المؤمنين.

[والتاء] - مثل قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، ويحذف معها العامل وجوباً، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: ترب الكعبة لأحجن إن شاء الله. (١)

(١) أداة القسم: الغالب فيها أن تكون فعلاً كأقسم، وتارة يحذف الفعل اختصاراً ويكتفى بأحرف القسم.

قال ابن القيم رحمه الله: والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة والتاء في أسماء الله كقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾، وقد نقل ترب الكعبة وأما الواو فكثيرة. اهـ التبيان في أقسام القرآن (ص: ٣).

- وأركانها أربعة: (مقسم - ومقسم به - مقسم عليه - وأداة القسم).

أولاً: المقسم: وهو الذي صدر منه القسم. والمقسم في القرآن أربعة:

- أ- الله تعالى نفسه، وهو كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ﴾.
- ب- الرسل كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ﴾، وقول إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.
- ج- غير الرسل كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.
- د- غير البشر، كالذي جاء عن إبليس في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والأصل ذكر المقسم به، وهو كثير كما في الأمثلة السابقة. وقد يحذف وحده مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن. (١)

وقد يحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] (٢)، والأصل ذكر المقسم عليه، وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] (٣) وقد يحذف جوازا مثل قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ

ثانيا: المقسم به: جاء القسم في القرآن: بالله - سبحانه - أو أحد صفاته، وبالمخلوقات كالصفات، والذاريات، والطور... إلخ.

فالحلف بالله أو بصفته لا إشكال فيها، وينعقد اليمين بها. ولكن الكلام في حلفه بمخلوقاته سبحانه. وقد ذكر أهل العلم أن الحكمة من ذلك أمور سيذكرها المؤلف.

تنبيه: لله أن يحلف بقاء شاء من مخلوقاته، أما حلف العباد بغير الله فهو من الشرك، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر - أو أشرك»، صحيح. أخرجه الترمذي: (٢٩٠ / ١)، وأبو داود: (٣٢٥١)، وابن حبان: (١١٧٧)، والحاكم: (٢٩٧ / ٤)، وصححه الشيخ الألباني في "إرواء الغليل": (٨ / ١٨٩).

وإنما أقسم الله بمخلوقاته؛ لأنها تدل على بارئها، وهو الله تعالى، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتيها ليعتبر الناس بها،

وعن ميمون بن مهران رحمته الله: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَمَنْ أَقْسَمَ فَلَا يَكْذِبُ» صحيح: [أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣ / ٧٩)].

(١) فأصل العبارة أحلف عليك بالله لتجتهدن، ويجوز أن يحذف وهو كثير.

(٢) أصلها: أقسم والله لتسألن يومئذ عن النعيم، فحذف العامل (أقسم) والمقسم به (الله).

(٣) فالأصل ذكر المقسم عليه؛ لأنه هو محط الفائدة، ولهذا كان ذكره كثيرا.

الْمَجِيدِ ﴿١﴾ [ق: ١] وتقديره لِيَهْلِكَنَّ. (١) وقد يحذف وجوباً إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في المغني ومثّل له بنحو: زيد قائم والله، وزيد والله قائم. (٢)

(١) قال الشيخ العثيمين في شرحه: القران المجيد هذا المقسم به، والمقسم عليه محذوف في تقديره ثلاثة أقوال: الأول: أنه محذوف تقديره [لِيَهْلِكَنَّ].

الثاني: أنه محذوف تقديره [لِيُعْثَنَ] وهو أقرب إلى السياق؛ لأن سياق الآية تدل على البعث قال تعالى: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب، أءأدنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾. الثالث: أنه لا حاجة لذكره وتقديره؛ لأنه معلوم من السياق. اهـ
قال ابن كثير رحمته الله: وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَابِ الْقَسَمِ مَا هُوَ؟ فَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ النُّحَاةِ أَنَّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ وَفِي هَذَا نَظَرٌ بَلِ الْجَوَابُ هُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقَسَمِ، وَهُوَ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ وَإِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَتَقْرِيرُهُ وَتَحْقِيقُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْقِسْمُ مُلْتَقِي لَفْظًا، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ. اهـ

قال العلامة الشنيطي رحمته الله: في أضواء البيان (٦/ ٣٢٨): وَحَذَفَ الْقَسَمَ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ الْإِثْنَانِ الْمَذْكُورَانِ، وَهِيَ كَوْنُ الرَّسُولِ مُرْسَلًا، وَالْبُعْثُ حَقًّا، وَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ إِشَارَةً وَاضِحَةً، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلِ عَجِبُوا﴾. الايات. اهـ

(٢) ففي المثال الأول: [زيد قائم والله] تقدم القسم جملة (زيد قائم) فأغنت عن ذكر المقسم عليه، فلا يحتاج إلى ذكره بل ذكره لغو؛ لأنك لو قلت: زيد قائم والله ليقوم من زيد. لكان كلاماً ركيكاً.

وفي المثال الثاني: زيد والله قائم المقسم (والله) هو متوسط للجملة (زيد قائم) فأصبح قد تضمنه واكتنفه ما يغني عن ذكر المقسم عليه، وأصل العبارة زيد والله قائم إنه لقائم، لكن ذكر المقسم عليه لغو لا فائدة منه؛ لأنه اكتنفه ما يغني عنه لذلك حذف وجوباً.

وللقسم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسم به. (١)

والثانية: بيان أهمية المقسم عليه، وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب مترددا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب منكرا له. (٢)

(١) قال ابن القيم **رحمته**: وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته. اهـ التبيان في أقسام القرآن (ص: ١). ونقل السيوطي في كتابه "الإتقان" عن أبي القاسم القشيري أنه قال: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة، أو لمنفعة. فالفضيلة، كقوله تعالى: ﴿وَطُورٍ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٢ - ٣] والمنفعة كقوله تعالى: ﴿وَالَّتِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ [التين: ١].

(٢) قال ابن القيم **رحمته**: والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه، ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر، والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها. اهـ [التبيان في أقسام القرآن" (ص: ٢).]

إشكال: لو قال قائل القسم لا يحتاج إليه إلا لأمر يرجع إلى المتكلم أو الملقى عليه.

فأما المتكلم يحتاج للقسم لتأكيد الأمر أو الخبر عند الملقى عليه، والله غير محتاج لذلك؛ لأنه سبحانه أحسن حديثاً وأصدق قبيلاً.

وأما الملقى عليه فيحتاج معه إلى قسم إذا كان شاكاً أو مكذباً والملقى عليه إما مؤمن أو كافر فالمؤمن يحمله إيمانه على تصديق كلام الله من غير قسم، والكافر لا ينتفع بالقسم إذاً فلا حاجة إلى أقسام الله في القرآن.

الجواب: أن القسم في القرآن فيه فوائد عظيمة منها: بيان عظمة المقسم به وفضله بيان أهمية المقسم عليه.

أنه من أبلغ الحجج وأوضحها على صدق نبوة محمد ﷺ وصحة رسالته، إذ لو كان كاذباً في هذه الأيانات لأصابته العقوبة الإلهية، وهذا أمر كان يعتقد أهل الجاهلية في من صدر منه الأيانات الكاذبة، أما الأمر بعكس ذلك فهذا دليل على صدق نبوته ﷺ وصحة رسالته. أن القسم منه دليل وبرهان على قدرته على فعل المقسم عليه.

وإننا لانسلم أنه لافائدة منه للمؤمن، فإن توكيد الكلام بالقسم يزيده طمأنينة و يقيناً. وإننا لانسلم أنه لافائدة منه للمرتاب والكافر فإن المرتاب تزول به ريبته وشكه والكافر يكون زيادة في إقامة الحجة عليه. [راجع "البرهان" للزركشي: (٣/ ٤١)، "الموسوعة القرآنية": (١٨٧/١)].

فوائد: أكثر ما أقسم الله به من المخلوقات: ﴿اللَّيْلِ﴾ حيث جاء القسم به في سبع آيات وهي: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ [التكوير: ١٧]، ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ [الفجر: ٤]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢].

أعم قسم في القرآن:

قال ابن القيم رحمه الله: ومن ذلك قوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إلى آخرها، قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه، وقال قتادة:

القصص

القصص والقص لغة: تتبع الأثر. ^(١) وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضاً. ^(٢)

أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر، وقال الكلبي: تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء. وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والأنس والعرش والكرسي وكل مخلوق. اهـ ["التبيان في أقسام القرآن" (ص: ١٧٥)].

قال ابن القيم رحمته الله: وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها وهي النفس الإنسانية، ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه، وأجله وهو القرآن، ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء وشمسها وقمرها، ونجومها ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم كقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾. اهـ ["التبيان في أقسام القرآن" (ص: ١١٧)].

(١) القص: تتبع الأثر. يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: ﴿ارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، أي رجعا يقصان الأثر الذي جاء به. وقال على لسان أم موسى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾، أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتتابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال. ["التوقيف على مهمات التعاريف" (ص: ٢٧٢)].

(٢) فهذا شرط في القصة أن تكون قضية ذات مراحل.

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك لتتام مطابقتها على الواقع. (١)

وأحسن القصص لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣] وذلك لاشتغالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى. (٢)

وقال الحرالي: القصص تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها، في معنى قص الأثر وهو اتباعه حتى ينتهي إلى محل ذي الأثر. اهـ [التوقيف على مهمات التعاريف" (ص: ٢٧٢)].

(١) قال العلامة السعدي رحمته الله: فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقا وخبره حقا، كان ما يدل عليه مطابقة وتضمنا وملازمة كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله صلى الله عليه وسلم لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه. اهـ

(٢) قال السعدي رحمته الله في تفسيره: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورواق معانيها. اهـ

تنبيه: قال شيخ الإسلام رحمته الله، وليس المراد بقوله: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، قصة يوسف وحدها بل هي بما قصه الله ومما يدخل في أحسن القصص، ... ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن ثنائها الله أكثر من غيرها وبسطها وطولها أكثر من غيرها؛ بل قصص سائر الأنبياء - كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين - أعظم من قصة يوسف ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية وحسدوه على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله وابتلي صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعه إلى الفاحشة فصبر

وأَنفَع القصص، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

[يوسف: ١١١].

وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق (١).

وَاتَّقَى اللَّهُ فِي هَذَا وَفِي هَذَا وَابْتَلَى أَيْضًا بِالْمُلْكِ فَاِبْتَلَى بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَصَبَرَ وَاتَّقَى اللَّهُ فِي هَذَا وَهَذَا فَكَانَتْ قِصَّتُهُ مِنْ أَحْسَنِ الْقَصَصِ وَهِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْقَصَصِ الَّتِي لَمْ تُقَصَّ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ يَظْلِمُونَ وَيَحْسُدُونَ وَيَدْعُونَ إِلَى الْفَاحِشَةِ وَيَتَّبِعُونَ بِالْمُلْكِ لَكِنْ لَيْسَ مَنْ لَمْ يُذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ مِمَّنْ اتَّقَى اللَّهَ وَصَبَرَ مِثْلَ يُوسُفَ وَلَا فِيهِمْ مَنْ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ أَحْسَنَ الْعَوَاقِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِثْلَ يُوسُفَ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا قَصَّه فِي كِتَابِهِ فَهُوَ أَحْسَنُ مِمَّا لَمْ يَقْصُهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ قِصَّةَ يُوسُفَ أَحْسَنُ مَا قُصَّ فِي الْقُرْآنِ. وَأَيْنَ مَا جَرَى لِيُوسُفَ مِمَّا جَرَى لِمُوسَى وَنُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّسُلِ وَأَيْنَ مَا عُودِي أَوْلَيْكَ مِمَّا عُودِي فِيهِ يُوسُفُ وَأَيْنَ فَضْلُ أَوْلَيْكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعُلُوُّ دَرَجَتِهِمْ مِنْ يُوسُفَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ؟ وَأَيْنَ نَصْرُ أَوْلَيْكَ مِنْ نَصْرِ يُوسُفَ؟... اهـ [مختصر من "مجموع الفتاوى" (١٧/١٩)].

(١) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: وَالْعِبْرَةُ: الْفِكْرَةُ وَالْبَصِيرَةُ الْمُخْلَصَةُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْحَيْرَةِ. وَأَوَّلُو الْأَلْبَابِ هُمْ ذَوُو الْعُقُولِ السَّالِمَةِ الَّذِي يَعْتَبِرُونَ بِعُقُولِهِمْ فَيَذَرُونَ مَا فِيهِ مَصَالِحُ دِينِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْقَصَصُ عِبْرَةً لِّمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الْمُنَاطِقَةِ لِلْوَاقِعِ مَعَ بُعْدِ الْمَدَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ قُصَّ حَدِيثُهُمْ. اهـ

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾، أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضا، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. اهـ

وهي ثلاثة أقسام:

- ١ - قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين. (١)
- ٢ - وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقلة الله تعالى عنهم، كقصّة مريم (٢)، ولقمان (٣)، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها (١)،

وقال الشنقيطي رحمه الله في "تفسيره": ذَكَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ فِي أَخْبَارِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ أُمَّهِمْ، وَكَيْفَ نَجَّى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ - عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ، أَيْ عِظَةً لِأَهْلِ الْعُقُولِ. اهـ

* ماهو السبب المعين على الانتفاع والاعتبار بما في القرآن:

قال ابن القيم رحمه الله: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْهُوَى وَالْإِنْقِيَادُ لِدَاعِي النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهُوَى يَطْمِسُ نُورَ الْعَقْلِ، وَيُعْمِي بِصِيرَةِ الْقَلْبِ، وَيَصُدُّ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَيُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَا تَحْصُلُ بِصِيرَةُ الْعِبْرَةِ مَعَهُ الْبَيِّنَةُ، وَالْعَبْدُ إِذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَدَ رَأْيُهُ وَنَظَرُهُ، فَارْتَهَ نَفْسُهُ الْحَسَنَ فِي صُورَةِ الْقَيْحِ، وَالْقَيْحِ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ، فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، فَأَنَّى لَهُ الْإِنْتِفَاعُ بِالتَّدَكُّرِ، أَوْ بِالتَّفَكُّرِ، أَوْ بِالْعِظَةِ؟ اهـ [مدارج السالكين: (١/ ٤٤٧)].

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه: المصدر الوثيق عن أخبار الأمم هو ما جاء عن الله أو عن رسوله عليه الصلاة والسلام، وفي هذه القصص عبرة عظيمة. اهـ

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: وَهِيَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَكَانَتْ مِنْ بَيْتِ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. اهـ [تفسير ابن كثير ط. العلمية: (٥/ ١٩٤)].

(٣) قال الشوكاني رحمه الله: اخْتَلَفَ فِي لُقْمَانَ: هَلْ هُوَ عَجَمِيٌّ، أَمْ عَرَبِيٌّ؟ وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا: هُوَ نَبِيٌّ، أَمْ رَجُلٌ صَالِحٌ؟ فَذَهَبَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيًّا. وَحَكَى الْوَاحِدِيُّ عَنْ

عِكْرَمَةً، وَالسُّدِّيُّ وَالشَّعْبِيُّ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ. اهـ. [فتح القدير "للسوكاني (٤/ ٢٧٣)].

قال ابن كثير رحمته الله في تفسيره: فَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ، وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْنَحَهُ أَفْضَلَ مَا يُعْرِفُ وَهَذَا أَوْصَاهُ أَوْلَا بِأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثًا لَهُ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ أَيُّ هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ. اهـ.

(١) اختلف أهل العلم في تسمية هذا الرجل الذي مر على القرية: فذكر ابن كثير رحمته الله: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: هُوَ عَزِيرٌ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ نَاجِيَةٍ، وَحَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَسُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، وَقَالَ: وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمَشْهُورُ. اهـ.

وقال في "البداية والنهاية" رحمته الله: وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْهَرُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

ومنهم من قال لا دليل على ذلك: قال ابن كثير رحمته الله: وَقَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا الْقَرْيَةُ فَلَمُشْهُورٌ أَتَمَّا بَيْتُ الْمُقَدَّسِ، مَرَّ عَلَيْهَا بَعْدَ تَخْرِيْبٍ بُخْتَنَصَّرَ لَهَا وَقَتْلَ أَهْلِهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ أَيْ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ. اهـ. قال السعدي رحمته الله: والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرا، وأن يجعله آية ودليلا للناس لثلاثة أوجه أحدها: قوله: ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ولو كان نبيا أو عبدا صالحا لم يقل ذلك.... اهـ.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: وَيُظَنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ عَازَرَ الَّذِي كَتَبَ لَهُمُ التَّوْرَةَ هُوَ الرَّجُلُ: ﴿الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وَيَقُولُ إِنَّهُ نَبِيٌّ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى هَاتَيْنِ الْمُقَدَّمَتَيْنِ، وَيَجِبُ التَّبَيُّتُ فِي ذَلِكَ نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا، فَإِنْ كَانَ نَبِيًّا وَاسْمُهُ عَزِيرٌ فَقَدْ وَافَقَ (صَاحِبَ التَّوْرَةِ) فِي الْإِسْمِ (لَا فِي النُّبُوَّةِ). اهـ. [هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢/ ٤٢٢)]. قال شيخ الإسلام رحمته الله:

وذو القرنين^(١)، وقارون^(١)،

قص هذه القصة التي فيها موت البشر مائة عام، وموت حماره، ومعه طعامه وشرابه، ثم إحياء هذا الميت وإحياء حماره وبقاء طعامه وشرابه لم يتغير ولم يفسد، وهو في دار الكون والفساد التي لا يبقى فيها في العادة طعام وشراب بدون التغير بعض هذه المدة، وهذا يبين قدرته على إحياء الآدميين والبهائم، وإبقاء الأطعمة والأشربة لأهل الجنة في دار الحيوان بأعظم الدلالات. اهـ. [درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٧٦)].

(١) قال السعدي رحمته الله في "تفسيره": كان أهل الكتاب أو المشركون، سألوا رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: ﴿سَأْتَلُو عَلَيْنَكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب. أي: سأتلوا عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم. اهـ.

وقد اختلف في تسميته وزمانه إلى أقوال كثيرة لادليل عليها. [راجع "تفسير ابن كثير" و"تفسير الشوكاني"].

واختلف هل هونبي أوملك صالح على أقوال لعل أرجحها أنه كان ملكا صالحا:

قال شيخ الإسلام رحمته الله: فَقِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَحْسَنُ قِصَصِ الْمُلُوكِ. اهـ. [مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٢)].

قال شيخ الإسلام رحمته الله: قَوْلُهُمْ: إِنَّ أَرِسْطُو وَزِيرَ ذِي الْقَرْنَيْنِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُ كَانَ وَزِيرَ الْإِسْكَندَرِ وَذُو الْقَرْنَيْنِ يُقَالُ لَهُ الْإِسْكَندَرُ. وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِمْ؛ فَإِنَّ الْإِسْكَندَرَ الَّذِي وَزَرَ لَهُ أَرِسْطُو هُوَ ابْنُ فِيلِبَسِ الْمَقْدُونِيِّ. الَّذِي يُورَخُ لَهُ تَارِيخُ الرُّومِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَهُوَ إِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَرْضِ الْقُدْسِ لَمْ يَصِلْ إِلَى السِّدِّ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ أَخْبَارَهُ وَكَانَ مُشْرِكًا يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ. وَكَذَلِكَ أَرِسْطُو وَقَوْمُهُ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَذُو الْقَرْنَيْنِ كَانَ مُوحِّدًا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَكَانَ مُتَقَدِّمًا عَلَى هَذَا وَمَنْ يُسَمِّيهِ الْإِسْكَندَرَ يَقُولُ: هُوَ الْإِسْكَندَرُ بْنُ دَارًا. اهـ. [مجموع الفتاوى (١٧٥/ ٩)].

وأصحاب الكهف (٢)،

(١) قال ابن كثير رحمته الله في "تفسيره": قَالَ الْأَعْمَشُ عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾، قَالَ: كَانَ ابْنُ عَمِّهِ، وَهَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ، وَسَيَّاحُ بْنُ حَرْبٍ وَفَتَادَةُ وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَزَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ قَارُونَ كَانَ عَمُّ مُوسَى بْنِ عَمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ

(٢) قال ابن القيم رحمته الله: الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا النَّبِيَّ صلی اللہ علیہ وسلم عَنِ الرُّوحِ وَعَنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَعَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ، فَقَالَ: أَخْبِرْكُمْ غَدًا. وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَتَلَبَّتِ الْوَحْيُ آيَاتًا ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. اهـ [مدارج السالكين] (٢/ ٤٠٣).

قال ابن كثير رحمته الله في "تفسيره": أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَةً شَبَابًا، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالْكَلِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ لَمَا اعْتَنَى أَحَبَّارُ الْيَهُودِ بِحِفْظِ خَبَرِهِمْ وَأَمْرِهِمْ لِمَا بَيَّنَّتْهُمْ هُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا إِلَى أَحَبَّارِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَشْيَاءَ يَمْتَحِنُونَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسلم، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ عَنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ، وَعَنْ خَبَرِ ذِي الْقُرْنَيْنِ، وَعَنِ الرُّوحِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُحْفُوظٌ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ. اهـ

قال الشنقيطي رحمته الله: وَاعْلَمْ أَنَّ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَأَسْمَاءَهُمْ، وَفِي أَيِّ حُلٍّ مِنَ الْأَرْضِ كَانُوا، كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صلی اللہ علیہ وسلم شَيْءٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي الْقُرْآنِ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ أَعْرَضْنَا عَنْ ذِكْرِهَا لِإِعْدَمِ الثِّقَةِ بِهَا. اهـ [أضواء البيان: (٣/ ٢٠٥)].

وأصحاب الفيل (١)،

قال ابن كثير رحمته الله: ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ الْأَنْفَعُ مِنْ خَيْرِهِمْ وَالْأَهَمُّ مِنْ أَمْرِهِمْ وَوَصَفَ حَالَهُمْ حَتَّى كَانُ السَّامِعَ رَأَى وَالْمُخْبَرَ مُشَاهِدًا لِصِفَةِ كَهْفِهِمْ وَكَيْفِيَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْكَهْفِ وَتَقْلُبِهِمْ مِنْ جَنْبٍ إِلَى جَنْبٍ وَأَنَّ كُلَّهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ. اهـ. ["البداية والنهاية" ط. إحياء التراث: (٢/ ١٣٦).]

قال شيخ الإسلام رحمته الله: فَإِنَّ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ هِيَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِنَّ مُكْنُتَهُمْ نِيَامًا لَا يَمُوتُونَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، لَيْسَ كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِلْحَادِ. وَهِيَ آيَةٌ عَلَى مَعَادِ الْأَبْدَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١]، وَإِخْبَارُ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله وسلم بِقِصَّتِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْلَمَ بِشَرِّ آيَةٍ عَلَى نُبُوتِهِ، فَكَانَتْ قِصَّتُهُمْ آيَةً عَلَى أَصُولِ الْإِيمَانِ الثَّلَاثَةِ؛ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ. وَمَعَ هَذَا فَلْيُسَوِّا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَجَبٍ، بَلْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ. اهـ. ["الجواب الصحيح" (٥/ ٣٨٤).]

(١) قال شيخ الإسلام رحمته الله: وَمِنْ آيَاتِ مُحَمَّدٍ صلوات الله عليه وآله وسلم وَدَلَائِلِ نُبُوتِهِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ قِصَّةُ الْفِيلِ، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْحَبَشَةِ النَّصَارَى سَارُوا بِجَيْشٍ عَظِيمٍ، مَعَهُمْ فِيلٌ، لِيَهْدِمُوا الْكَعْبَةَ لَمَّا أَهَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ كَنِيستَهُمُ الَّتِي بِالْيَمَنِ فَفَصَدُوا إِهَانَةَ الْكَعْبَةِ وَتَعْظِيمَ كَنَائِسِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَهْلَكَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عَامَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله وسلم، وَكَانَ حِيرَانُ الْبَيْتِ مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَدِينُ النَّصَارَى خَيْرٌ مِنْ دِينِهِمْ. فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمْ تَكُنْ لِأَجْلِ حِيرَانِ الْبَيْتِ حِينَئِذٍ، بَلْ كَانَتْ لِأَجْلِ الْبَيْتِ أَوْ لِأَجْلِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله وسلم، الَّذِي وُلِدَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ عِنْدَ الْبَيْتِ، أَوْ لِمَجْمُوعِهِمَا، وَأَيُّ ذَلِكَ كَانَ فَهُوَ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوتِهِ. اهـ. ["الجواب الصحيح" (٦/ ٥٥).]

وقال رحمته الله: وَكَانَ عَامُ الْفِيلِ عَامَ مَوْلِدِهِ صلوات الله عليه وآله وسلم قَبْلَ مَوْلِدِهِ بَنَحُو خَمْسِينَ لَيْلَةً. اهـ. ["الصفدية" (١/ ٢١٩).]

وأصحاب الأخدود^(١) وغير ذلك.

٣ - وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر^(٢)،
وأحد^(٣)،

(١) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره": وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أي: لُعِنَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ وَجَمْعُهُ أَخَادِيدُ وَهِيَ الْحَفِيرُ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا خَبْرٌ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَمَدُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَفَهَرَوْهُمْ وَأَرَادُوهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ فَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُخْدُودًا وَأَجَجُوا فِيهِ نَارًا وَأَعَدُّوا لَهَا وَقُودًا يُسْعَرُونَ بِهَا، ثُمَّ أَرَادُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ فَقَذَفُوهُمْ فِيهَا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٤-٧] أي: مُشَاهِدُونَ لِمَا يَفْعَلُ بِأَوْلِيكَ الْمُؤْمِنِينَ. اهـ

وقد ذكر رسول الله ﷺ كما في "صحيح مسلم" (٣٠٠٥)، عن صهيب رضي الله عنه في قصة الغلام والراهب والملك، شيئاً من قصتهم فقال: ... فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَّكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النَّارَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا...

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: وَبَدَرُ: مُحَلَّةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ تُعْرَفُ بِبَيْتِهَا، مَنْسُوبَةٌ إِلَى رَجُلٍ حَفَرَهَا، يُقَالُ لَهُ: بَدَرُ بْنُ النَّارَيْنِ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: بَدَرٌ بَيْتٌ لِرَجُلٍ يُسَمَّى بَدْرًا. اهـ [تفسير ابن كثير: (٩٧ / ٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: وَكَانَتْ لَيْلَةُ بَدَرٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ السَّابِعَةِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثِنْتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ. اهـ "البداية والنهاية": (٣ / ٣٢٦). وقد ذكر الله لأ قصة غزوة بدر في سورة الأنفال.

(٣) قال ابن القيم رحمه الله: أَحَدُ كَانَتْ فِي شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ بَغَيْرِ خِلَافٍ. اهـ [الفروسية] (ص: ٢٠٧).

والأحزاب (١)، وبني قريظة (٢)، وبني النضير (٣)، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

قال ابن كثير رحمته الله: غزوة أحد في شوال سنة ثلاث، وسمي أحدًا لثوخته من بين تلك الجبال. اهـ [البداية والنهاية: (٤ / ١١)]. وقد ذكر الله هذه الغزوة في سورة آل عمران.

(١) قال ابن كثير رحمته الله في "البداية والنهاية" (٤ / ١٠٧): وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا صَدْرَ سُورَةِ الْأَحْزَابِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، الآيات وَقَدْ كَانَتْ غَزْوَةُ الْخُنْدَقِ فِي شَوَّالِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَقَتَادَةُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا. اهـ

(٢) قال ابن كثير رحمته الله: كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ هَمَّ حِصْنُ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ، وَهُمْ عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله وسلم وَذِمَّةٌ وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِيَةِ مِقَاتِلٍ. فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ حَبِيبُ بْنُ أَخْطَبٍ النَّضْرِيُّ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ وَمَالُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله وسلم، فَعَظُمَ الْخَطْبُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ وَصَاقَ الْحَالُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾. اهـ

وقد نزلت فيهم آيات من سورة الأحزاب. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَّأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]. وكانت هذه الغزوة بعد غزوة الأحزاب.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: قَاتَلَ قُرَيْظَةَ عَامَ الْأَحْزَابِ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ. اهـ

(٣) قال شيخ الإسلام رحمته الله في الجواب الصحيح (١ / ١٦٧): قَاتَلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ سُورَةَ الْحَشْرِ، وَقَاتَلَ قُرَيْظَةَ عَامَ الْأَحْزَابِ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَقَاتَلَ قَبْلَهُمْ بَنِي قَيْنِقَاعَ. اهـ

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها :

- ١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ﴾ [القمر: ٥٤].
- ٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

قال ابن القيم رحمته الله: كَانَ لَهُ مَعَ الْيَهُودِ أَرْبَعُ غَزَوَاتٍ، أُولَاهَا: غَزْوَةُ بَنِي قَيْنِقَاعَ بَعْدَ بَدْرٍ، وَالثَّانِيَةُ: بَنِي النَّضِيرِ بَعْدَ أُحُدٍ، وَالثَّالِثَةُ: قُرَيْظَةَ بَعْدَ الْحَنْدَقِ، وَالرَّابِعَةُ: خَيْبَرَ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ. اهـ. [زاد المعاد (٣/ ٢٢٣)].

ومنهم من يرى أنها قبل أحد. [راجع "زاد المعاد" (٣/ ١١٥)، "البداية والنهاية" (٤/ ٨٥)].

فائدة: قال ابن القيم رحمته الله: غَزَوَاتُهُ كُلُّهَا وَبُعُوثُهُ وَسَرَايَاهُ كَانَتْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ فِي مَدَّةِ عَشْرِ سِنِينَ، فَالْغَزَوَاتُ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ، وَقِيلَ: خَمْسٌ وَعِشْرُونَ، وَقِيلَ: تِسْعٌ وَعِشْرُونَ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، قَاتَلَ مِنْهَا فِي تِسْعٍ: بَدْرٌ، وَأُحُدٌ، وَالْحَنْدَقُ، وَقُرَيْظَةُ، وَالْمُصْطَلِقُ، وَخَيْبَرُ، وَالْفَتْحُ، وَحُنَيْنٌ، وَالطَّائِفُ. وَقِيلَ: قَاتَلَ فِي بَنِي النَّضِيرِ، وَالْعَابَةِ، وَوَادِي الْفُرَى مِنْ أَعْمَالِ خَيْبَرَ. وَأَمَّا سَرَايَاهُ وَبُعُوثُهُ، فَقَرِيبٌ مِنْ سِتِّينَ، وَالْغَزَوَاتُ الْكِبَارُ الْأُمَّهَاتُ سَبْعٌ: بَدْرٌ، وَأُحُدٌ، وَالْحَنْدَقُ، وَخَيْبَرُ، وَالْفَتْحُ، وَحُنَيْنٌ، وَتَبُوكُ. وَفِي شَأْنِ هَذِهِ الْغَزَوَاتِ نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَسُورَةُ (الْأَنْفَالِ) سُورَةُ بَدْرٍ، وَفِي أُحُدٍ آخِرُ سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، إِلَى قُبَيْلِ آخِرِهَا بِبَيْسَرٍ، وَفِي قِصَّةِ الْحَنْدَقِ، وَقُرَيْظَةَ، وَخَيْبَرَ صَدْرُ سُورَةِ (الْأَحْزَابِ)، وَسُورَةُ (الْحُشْرِ) فِي بَنِي النَّضِيرِ، وَفِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَخَيْبَرَ سُورَةُ (الْفَتْحِ) وَأُشِيرَ فِيهَا إِلَى "الفتح"، وَذُكِرَ "الفتح" صَرِيحًا فِي سُورَةِ (النَّصْرِ). اهـ. [زاد المعاد (١/ ١٢٥)].

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَحْنِإَنَّهُمْ بِسَحَرِ نِعْمَةٍ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤-٣٥].

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥-٢٦].

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذا علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكرراً حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن أكثر القصص تكراراً قصة موسى ثم قصة عيسى وذلك لأن الحاجة تدعو إلى ذلك فإن اليهود كانوا موجودين في المدينة وقرييين من قريش وكذلك النصارى في نجران وغيرها، لذلك تكررت قصة موسى وعيسى عليهما السلام، ومع هذا لا يكون هذا التكرار على وجه واحد بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر. وهذا الاختلاف فيه فوائد منها: ذهاب الملل من تكرار القصة، وأن كل موضع ذكرت فيه القصة تميز بفائدة جديدة تجعل السامع يتلهف لسماع القصة وكأنها لأول مرة تمر عليه.

ومن الحكمة في هذا التكرار؟

- ١- بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.
- ٢- تأكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس.
- ٣- مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالباً فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.
- ٤- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقضيه الحال.

٥ - ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدو تناقض. (١)

(١) قال شيخ الإسلام رحمته الله في "مجموع الفتاوى" (١٣ / ١٦٤): وَاللَّهُ ثَنَى قِصَّةَ فِرْعَوْنَ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ لِاحْتِيَاجِ النَّاسِ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِهَا فَإِنَّهُ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ وَدَعَايِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْعُلُوِّ مَا لَمْ يَحْصُلْ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُعْطَلِينَ وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ إِلَى مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى. اهـ

وقال في "مجموع الفتاوى" (١٧ / ٢١): بَيَّنَّ أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ وَأَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي عَاقِبَةِ مَنْ كَذَبَهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ بِالنَّصْرِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ قِصَّةَ مُوسَى وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِ أَعْظَمُ وَأَشْرَفُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ بِكَثِيرٍ وَلِهَذَا هِيَ أَعْظَمُ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي تُذَكِّرُ فِي الْقُرْآنِ ثَنَاءً لِلَّهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا وَبَسْطَهَا وَطَوَّلَهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا. اهـ

قال الزركشي رحمته الله: وَإِنَّمَا كَرَّرَهَا لِإِفَادَةِ خَلَّتْ عَنْهُ فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ وَهِيَ أُمُورٌ أَحَدُهَا: أَنَّهُ إِذَا كَرَّرَ الْقِصَّةَ زَادَ فِيهَا شَيْئًا أَلَّا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ الْحَيَّةَ فِي عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَكَرَهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ثُعْبَانًا فَفَادَتْهُ أَنَّ لَيْسَ كُلُّ حَيَّةٍ ثُعْبَانًا وَهَذِهِ عَادَةُ الْبُلْغَاءِ أَنْ يُكْرِّرَ أَحَدُهُمْ فِي آخِرِ خُطْبَتِهِ أَوْ قِصِيدَتِهِ كَلِمَةً لِصِفَةِ زَائِدَةٍ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَسْمَعُ الْقِصَّةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَهْلِهِ ثُمَّ يَهَاجِرُ بَعْدَهُ آخَرُونَ يَحْكُونَ عَنْهُ مَا نَزَلَ بَعْدَ صُدُورِ الْأَوَّلِينَ وَكَانَ أَكْثَرُ مَنْ آمَنَ بِهِ مُهَاجِرًا فَلَوْلَا تَكَرُّرُ الْقِصَّةِ لَوَقَعَتْ قِصَّةُ مُوسَى إِلَى قَوْمٍ وَقِصَّةُ عِيسَى إِلَى آخَرِينَ وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْقِصَصِ فَأَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اشْتِرَاكَ الْجَمِيعِ فِيهَا فَيَكُونُ فِيهِ إِفَادَةُ الْقَوْمِ وَزِيَادَةُ [تَأْكِيدٍ وَتَبْصُرَةٍ]، لِآخَرِينَ وَهُمْ الْحَاضِرُونَ وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا ابْنُ الْجُوزِيِّ وَغَيْرُهُ.

الثَّالِثَةُ: تَسْلِيَتُهُ لِقَلْبِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وآله وسلم بِمَا اتَّفَقَ لِلْأَنْبِيَاءِ مِثْلُهُ مَعَ أَهْلِهِمْ. الرَّابِعَةُ: أَنَّ إِبْرَارَ الْكَلَامِ الْوَاحِدِ فِي فُنُونٍ كَثِيرَةٍ وَأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ لَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنَ الْفَصَاحَةِ. الْخَامِسَةُ: أَنَّ الدَّوَاعِيَ لَا تَتَوَفَّرُ عَلَى نَقْلِهَا كَتَوَفَّرَ عَلَى نَقْلِ الْأَحْكَامِ فَلِهَذَا كُرِّرَتْ الْقِصَصُ.

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى. (١)

وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأولى: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق. (٢)

مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على

السَّادِسَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ وَعَجَزَ الْقَوْمُ عَنِ الْإِثْنَيْنِ بِمِثْلِ آيَةٍ لَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ثُمَّ بَيَّنَّ وَأَوْضَحَ الْأَمْرَ فِي عَجَزِهِمْ بِأَنْ كَرَّرَ ذِكْرَ الْقِصَّةِ فِي مَوَاضِعَ إِعْلَامًا بِأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْإِثْنَيْنِ بِمِثْلِهِ بِأَيِّ نَظْمٍ جَاءُوا بِأَيِّ عِبَارَةٍ عَبَّرُوا، قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ. اهـ. مختصر من "البرهان في علوم القرآن" (٣/ ٢٥).

(١) بنوا إسرائيل هم اليهود، لكن المقصود هنا الأخبار المنقولة عن اليهود والنصارى، وسميت إسرائيليّات من باب التغليب لليهود؛ لأن النقل عنهم أكثر من النصارى، قال الشوكاني: [يا بني إسرائيل] اتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومعناه عبد الله، لأن [إسرا] في لُغَتِهِمْ: هُوَ الْعَبْدُ [وإيل] هُوَ اللَّهُ، قِيلَ: إِنَّ لَهُ اسْمَيْنِ، وَقِيلَ: إِسْرَائِيلُ لَقَبٌ لَهُ. اهـ. [فتح القدير] للشوكاني: (١/ ٨٧).

قال الشيخ العثيمين رحمته الله: وبنوه: ذريته من ذكور، وإناث، كما يقال: "بنو تميم" لذكورهم، وإناثهم؛ و"بنو إسرائيل" بنو عم للعرب؛ لأن العرب من بني إسماعيل؛ وهؤلاء من بني إسرائيل؛ وجدهم واحد. وهو إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ. [تفسير العثيمين]: الفاتحة والبقرة (١/ ٢٦٧).

(٢) كان حقاً؛ لأن الإسلام أقره؛ لالأن الأخبار المروية عن بني إسرائيل حق.

إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل، **مثاله:** ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ ^(١) [البقرة: ٢٢٣].

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿أَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] الآية، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري ^(٢)، وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه. ^(١)

(١) فهذا النوع يجب تكذيبه؛ لأنه شهد الإسلام بكذبه.

(٢) هذا النوع مسكوت عنه في الشرع، فتتوقف فيه لا نصدقه ولا نكذبه ويجوز روايته والتحدث به بشروط:

الأول: أن يكون مما يبيزه العقل.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين، فإنه حرام^(٢) لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسألوا أهل الكتاب

قال ابن كثير رحمته الله: إنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)، فيما يميزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل والله أعلم، [راجع: أوائل تفسير سورة (ق)].

الثاني: أن لا يحصل من التحدث به محذور.

قال الشيخ العثيمين رحمته الله: المحذور الذي يخشى أن يتجه الناس إلى هذه القصص ويدعوا ما جاء في القرآن والسنة ففي هذه الحال يجب أن لا تنقلها للناس وأن لا نتحدث بها لأن كل شيء يفضي إلى الإعراض عن الكتاب والسنة فإنه محرم. اهـ [راجع "شرحه لأصول التفسير".]

(١) قال شيخ الإسلام رحمته الله: و الثالث: مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ لَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فَلَا تُؤْمِنُ بِهِ وَلَا تُكَذِّبُهُ وَتَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقَدَّمَ، وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَى أَمْرِ دِينِيٍّ، كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَلَوْ كَلِبِهِمْ وَعَدَّتْهُمْ وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَهَمَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا دِينِهِمْ، وَلَكِنْ نَقَلَ الْخِلَافَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ. [راجع "مقدمة في أصول التفسير".]

(٢) قال شيخ الإسلام رحمته الله: قد أخبر الله عن تبديلهم وتحريفهم، فكيف يحل للمسلم أن يصدق شيئاً من ذلك، بمجرد هذا النقل؟ بل الواجب أن لا يصدق ذلك، ولا يكذبه أيضاً إلا بدليل يدل على كذبه، وهكذا أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم، وفي هذه الإسرائيليات مما هو كذب على الأنبياء، أو ما هو منسوخ في شريعتنا، ما لا يعلمه إلا الله. اهـ "اقتضاء الصراط المستقيم": (٣٥١ / ٢).

قال القرطبي رحمته الله: وَالْإِسْرَائِيلِيَّاتُ مَرْفُوضَةٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْبَتَاتِ، فَأَعْرِضْ عَنْ سَطُورِهَا بَصْرَكَ، وَأَصْمِمْ عَنْ سَمَاعِهَا أَذُنَيْكَ، فَإِنَّهَا لَا تُعْطَى فِكْرَكَ إِلَّا خِيَالًا، وَلَا تَزِيدُ فُؤَادَكَ إِلَّا

عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»^(١).

وروى البخاري^(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم أَخَذْتُ الْأَخْبَارَ بِاللَّهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبَّ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَعَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلَا يَنْهَأُكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ»^(٣).

خَبَالًا. اهـ تفسير القرطبي (١٥ / ٢١٠)، قال ابن كثير رحمه الله: لِيُعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ عَلَيْهِ كَذِبٌ وَهَيْئَانٌ، لِأَنَّهُ قَدْ دَخَلَهُ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلٌ وَتَغْيِيرٌ وَتَأْوِيلٌ، وَمَا أَقَلَّ الصَّدَقَ فِيهِ، ثُمَّ مَا أَقَلَّ فَائِدَةُ كَثِيرٍ مِنْهُ لَوْ كَانَ صَحِيحًا. اهـ [تفسير ابن كثير] ط. العلمية: (٦ / ٢٥٧).

(١) حسن لغیره: حديث جابر بن عبد الله: مدار إسناده على مجالد بن سعيد، وهو ضعيف. لكن الحديث يتقوى بشواهد. [راجع: شواهد الحديث فتح الباري: (١٣ / ٣٣٤)، (١٣ / ٥٢٥)] وقال: وَأَخْرَجَهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ بِلَفْظٍ: لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ أَوْ تَصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، وَسَنَدُهُ حَسَنٌ. اهـ [وراجع لطرق الحديث مسند أحمد. ط / الرسالة (٢٢ / ٤٦٨)، وحسنه في تحقيقه على "السير" بشواهد: ط / الرسالة (٣ / ٨٦)].

(٢) البخاري برقم: (٢٦٨٥).

(٣) قد اتهم ابن عباس أنه ممن يرجع إلى بني إسرائيل في مسائل الشريعة خاصة فهم القرآن، وهذه التهمة باطلة، فابن عباس وغيره من الصحابة، إنما أخذوا عنهم ما قد ثبت في شرعنا أو مما لم يعارضه، فلم يتجاوزوا القدر المشروع في ذلك، وهذا الأثر الصحيح عنه في التحذير من الأخذ عنهم أكبر شاهد على ذلك.

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت مواقف العلماء، ولاسيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأي أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدها، مثل ابن جرير الطبري. ^(١)

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالباً، فكان حاطب ليل مثل البغوي رحمته الله الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله عن تفسيره: إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة، وقال عن

قال شيخ الإسلام رحمته الله: غَالِبَ مَا يَرْوِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّدي الْكَبِيرُ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَنْقُلُ عَنْهُمْ مَا يَحْكُونَهُ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّتِي أَبَاحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو. وَلِهَذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو قَدْ أَصَابَ يَوْمَ الْيَوْمِ الْيَوْمِ رَامِلَتَيْنِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَكَانَ يُحَدِّثُ مِنْهُمَا بِمَا فَهَمَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْإِذْنِ فِي ذَلِكَ. [راجع "مقدمة في أصول التفسير"، وراجع: الدفاع عن ابن عباس في: "التفسير والمفسرون للذهبي": (١/٥٠٥)].

(١) قال ابن عثيمين رحمته الله: هذا فيه نظر، لأنه إذا ذكرها فقد لا يتيسر للقارئ أن يراجع أصولها ويعرفها، ولكن يعتذر عن ابن جرير وأشباهه بأنهم لم يكن لهم فراغ في تمحيصها، وخافوا من ضياع الصحيح منها، فقالوا: نشبتها ولعل الله أن يأتي بمن ينقحها. اهـ [شرح أصول التفسير].

الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع. (١)

ج- ومنهم من ذكر كثيرًا منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير. (٢)

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئاً يجعله تفسيراً للقرآن كمحمد رشيد رضا. (٣)

(١) قال ابن عثيمين رحمته الله: هذا أقل رتبة من الأول؟ لأن الأول يذكر الأسانيد ويأمن الإنسان أن يراجعها ويعرف الصحيح من الضعيف، لكن هذا لا يذكر الأسانيد فكان حاطب ليل. اهـ. [شرح أصول التفسير]

(٢) قال ابن عثيمين رحمته الله: تعقب البعض ولم يتعقب الكل. اهـ. [شرح "أصول التفسير"].

(٣) محمد رشيد رضا صاحب تفسير "المنار" له زلات وشطحات وقد رد شيخنا مقبل الوادعي رحمته الله على بعض زلاته في كتابه "الرد على الطاعنين في حديث السحر" وهو ممن ينكر خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان قال الذهبي (المعاصر): [محمد رشيد رضا مع شدة لومه للمفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم، ويتخذون منها شروحاتاً لكتاب الله، يخوض هو أيضاً في ما هو من هذا القبيل ويتخذ منها شروحاتاً لكتاب الله، وكان الأجدر أن يكف هو أيضاً]. اهـ. [راجع "التفسير والمفسرون": (٣٩٦/٢)].

فائدة: أحسن التفاسير سلامة من الإسرائيليات: تفسير الألوسي: وتفسير ابن كثير، والسعدي. وأكثر التفاسير نقلاً للإسرائيليات: تفسير مقاتل، وتفسير الثعلبي، وتفسير الواحدي، وتفسير البغوي.

الضمير

الضمير لغة: من الضمور وهو الهزال لقلة حروفه أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كني به عن الظاهر اختصاراً. (١)

وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتهما. (٢)

تنبيه: لا يكون مجرد وجود الإسرائيليات في تفسير ما طعننا في ذلك التفسير، إلا إذا لم ينبه على المخالف للشرع والعقل منها. قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه على: "مقدمة في علوم التفسير": فهذا القول هو الصحيح - ما ذكره ابن تيمية هنا - هو التوسط في مسألة النقل عن بني إسرائيل؛ لأن الناس في النقل عن بني إسرائيل من زمن التابعين وزمن الأئمة على ثلاث أنحاء: منهم من يمنعها. ومنهم من يقبلها مطلقاً. ومنهم من ينقل ما يدخل تحت هذه الشروط التي ذكرنا، أهل العصر اليوم كما تسمعون ينقدون أي: تفسير؛ لأن فيه إسرائيليات، يقولون: هذا فيه الإسرائيليات، ونقّوا كتب التفسير من الإسرائيليات. هذا ليس بمنهج علمي صحيح؛ لأن النبي ﷺ قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، وقال: «إذا حدثكم بنو إسرائيل فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإنه إن يكن حقاً فتكذبوهم أو يكن باطلاً فتصدقوهم»، فالقول بأن كل تفسير فيه إسرائيليات مردود أو ضعيف، فيه نظر؛ بل ينبغي أن يقيد بهذه الضوابط التي قلنا. اهـ

(١) فقولك: (زيد ضربه عمرو) أغنى الضمير في: (ضربه) عن ذكر زيد.

(٢) عرفه بعضهم: أنه ما دل على متكلم (كأنا)، أو مخاطب (كأنت)، أو غائب (كهو). قال ابن

مالك في الألفية: [فما لذي غيبة أو حضور كَأَنْتَ وَهُوَ سَمَّ بِالضَّمِيرِ]

وقوله: [أو حضور]: يشمل المتكلم والمخاطب.

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤].

الثاني: ما وضع للمخاطب مثل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلاله الحضور عنه.

والدال على الغائب، ما وضع للغائب. ولا بد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع أن يكون سابقاً على الضمير لفظاً ورتبه مطابقاً له لفظاً

ومعنى مثل: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ [هود: ٤٥] ^(١).

قوله: لامن مادتهما: قال الشيخ في شرحه: يعني لا نقول (حضر) إنه ضمير، ولا (غاب) إنه ضمير؛ لأن دلالة (حضر) على الحضور من المادة، ودلالة (غاب) على الغيبة من المادة أيضاً. اهـ

(١) فلا يحتاج إلى مرجع إلا ضمير الغائب، والأصل فيه أن يكون سابقاً على الضمير لفظاً ورتبه في اللفظ، أي: أن يكون متقدماً عليه في النطق، وفي الرتبة لأن الأصل في الكلام أن يتقدم المبتدأ ثم الخبر، والفعل ثم الفاعل ثم المفعول به فمعناه أن يكون رتبة المرجع سابقة لرتبة الضمير.

والأصل في المرجع أيضاً أن يكون مطابقاً للضمير لفظاً، ومعنى مطابقة اللفظ أي: إذا كان الضمير مفرداً كان مفرداً، وإذا كان مثنى كان مثنى وهكذا، ومطابقة المعنى أي: إذا كان الضمير مذكراً كان المرجع مذكراً، وإذا كان مؤنثاً كان مؤنثاً مثاله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ [هود: الآية ٤٥]. فالمرجع، وهو (نوح) سابق للضمير في (ربه) في اللفظ فهو متقدم عليه، ومتقدم عليه رتبة؛ لأنه فاعل، ومطابق له في اللفظ والمعنى لأن كليهما مفرد مذكر.

وقد يكون مفهوما من مادة الفعل السابق مثل: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. (١)، وقد يسبق لفظا لا رتبة مثل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ [البقرة: ١٢٤] (٢)، وقد يسبق رتبة لا لفظا مثل: (حمل كتابه الطالب). (٣)

وقد يكون مفهوما من السياق مثل: ﴿وَلَا بُؤْيُوهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١]، فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، وقد لا يطابق الضمير معنى مثل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٣]، فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ، لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول. (٤)

وإذا كان المرجع صالحا للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما مثل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

-
- (١) فالمرجع هو العدل وهو مأخوذ من قوله تعالى: (اعدلوا)، فإن ظاهر الآية أن الضمير (هو) يعود على فعل الأمر (اعدلوا) وهو إنما يعود للمصدر المستفاد من هذا الفعل.
- قال السيوطي في "مع الهوامع": (١/ ٣٣)، حَيْثُ عَادَ الضَّمِيرُ إِلَى فِعْلِ الْأَمْرِ: فَالْجَوَابُ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْمَصْدَرِ الْمَفْهُومِ مِنْهُ وَهُوَ الْعَدْلُ لَا عَلَى الْفِعْلِ نَفْسِهِ. اهـ
- (٢) فالمرجع: (إبراهيم) متقدم في اللفظ على الضمير في (ربه) وهو متأخر عنه رتبة؛ لأن (إبراهيم) مفعول به، والضمير: (الهاء) مضاف إلى (رب) الفاعل، والفاعل مقدم على المفعول، والضمير في رتبة ما أضيف إليه فأصبح الضمير مقدم في الرتبة على المرجع.
- (٣) فالضمير (الهاء) في (كتابه) مقدم على المرجع: (الطالب) في اللفظ لكنه متأخر عنه رتبة؛ لأن المرجع فاعل والضمير مضاف إلى المفعول به، فأصبح المرجع متقدم رتبة لا لفظاً.
- (٤) أي: ليس هو آدم؛ فإن آدم لم يجعل نطفة بعد أن خلق من تراب، إنما هم ذريته.

فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١﴾ [الطلاق: ١١]. (١)، والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٥-١٠]، فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى (شَدِيدُ الْقُوَى) وهو جبريل. والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه مثال الأول: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]. (٢)، ومثال الثاني: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. (٣)

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه. (٤)

(١) ف (من) الشرطية هي المرجع وهي تصلح للمفرد والجمع، فيجوز أن يعود الضمير إليها بلفظ الأفراد أو الجمع، فعاد في المرة الأولى بلفظ الأفراد في قوله تعالى: (يدخله) وعاد في المرة الثانية بلفظ الجمع في قوله: (خالدين).

(٢) فالضمير في (جعلناه) يعود على (الكتاب) لأنه أقرب مذكور.

(٣) فالضمير في: ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾، لا يعود على الله مع أنه أقرب مذكور، وإنما يعود على المضاف وهو (النعمة)؛ لأن الحديث عنه، ويدل على ذلك التأنيث في: ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾.

(٤) مثل له المؤلف بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨].

قال الشنقيطي رحمه الله في "أضواء البيان": (٥ / ٣٠٢)، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، اِخْتَلَفَ فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ الَّذِي هُوَ لَفْظُ هُوَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ﴾ [الحج: ٧٨]، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اللَّهُ هُوَ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِي هَذَا، وَهَذَا الْقَوْلُ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالْضَّحَّاكُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَقَتَادَةُ، كَمَا

الإظهار في موقع الإضمار

نَقَلَهُ عَنْهُمْ ابْنُ كَثِيرٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ أَيُّ: إِبْرَاهِيمُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَدَلَّ هَذَا بِقَوْلِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وَهَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ
زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا هَذَا الْكِتَابُ الْمُبَارَكُ أَنَّ يَقُولُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي الْآيَةِ
قَوْلًا، وَتَكُونُ فِي الْآيَةِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ ذَلِكَ الْقَوْلِ، وَجِئْنَا بِأَمْثَلَةٍ كَثِيرَةٍ فِي التَّرْجَمَةِ،
وَفِيمَا مَضَى مِنَ الْكِتَابِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ قَرِيبَتَانِ تَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ قَوْلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بِنِ
اسْلَمَ غَيْرُ صَوَابٍ.

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، أَيُّ: الْقُرْآنِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَمْ يُسَمِّهِمُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقُرْآنِ، لِنُزُولِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِأَزْمَانٍ طَوِيلَةٍ كَمَا نَبَّهَ عَلَى هَذَا ابْنُ
جَرِيرٍ. الْقَرِينَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ الْأَفْعَالَ كُلَّهَا فِي السِّيَاقِ الْمَذْكُورِ رَاجِعَةٌ إِلَى اللَّهِ، لَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
فَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، أَيُّ: اللَّهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، أَيُّ: اللَّهُ: ﴿هُوَ
سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيُّ: اللَّهُ.

فَإِنْ قِيلَ: الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وَأَقْرَبُ مَذْكُورٍ لِلضَّمِيرِ الْمَذْكُورِ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ.
فَالْجَوَابُ: أَنَّ مَحَلَّ رُجُوعِ الضَّمِيرِ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ مُحَلُّهُ مَا لَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ صَارِفٌ، وَهُنَا قَدْ
صَرَفَ عَنْهُ صَارِفٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَفِي هَذَا﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِاللَّذِي:
﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾، فِيهِ: هُوَ اللَّهُ لَا إِبْرَاهِيمَ، وَكَذَلِكَ سِيَاقُ الْجُمْلَةِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَهُ نَحْوُ:
﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، يُنَاسِبُهُ أَنْ يَكُونَ: ﴿هُوَ
سَمَّاكُمُ﴾ أَيُّ: اللَّهُ، ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾. اهـ.

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أئين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير بقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] عن عشرين كلمة المذكورة قبله. (١)

وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى: (الإظهار في موضع الإضمار)، وله فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق منها:

١- الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢- بيان علة الحكم.

٣- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهار:

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله في شرحه: فالأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لوجهين:

الأول: لأنه أئين للمعنى؛ لأن ذلك يربط الكلام المتأخر بالمتقدم، فإذا أظهر قد يظن الظان أن هذا الكلام لا يرجع ولا يعود على ما سبق.

والوجه الثاني: أنه أخصر للمعنى ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فالضمير في: (لهم) ناب عن عشرين اسماً فحصل الاختصار أرأيت لو قال: أعد الله للمسلمين والمسلمات ... إلخ، لكان الكلام طويلاً من وجه، وركيكاً من وجه آخر.

١- الحكم بالكفر على من كان عدوا لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكائيل.

٢- أن الله عدو لهم بكفرهم.

٣- أن كل كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ولم يقل أنا لا نضيع أجرهم، فأفاد ثلاثة أمور:

١- الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب. ويقيمون الصلاة.

٢- أن الله أجرهم لإصلاحهم.

٣- أن كل مصلح وله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاية أمورهم وبطانة ولاية أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأوهم أن يكون المراد بطانة المسلمين. (١)

ضمير الفصل

ضمير الفصل: حرف (٢)، بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر

(١) ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] فلو قال: إنه

كان مشهودا، لعله يلتبس على السامع هل هو عائد على القرآن أو الفجر.

(٢) أي كلمة، لأن الحرف يطلق على الكلمات في لغة العرب، فالحرف عندهم هو اللفظ المفرد.

إذا كانا معرفتين^(١)، ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصفات: ١٦٥]، وبضمير المخاطب كقوله تعالى: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وبضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وله ثلاثة فوائد:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: زيد هو أخوك أوكد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بها بعده، فإن قولك المجتهد هو الناجح يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

ثالثاً: الفصل: أي التمييز بين كونه ما بعده خبراً، أو تابعاً، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبراً، وإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكون الفاضل خبراً، لوجود ضمير الفصل^(٢).

(١) قال الأصهباني في "إعراب القرآن": (ص: ٤٧٨): والمواضع التي يدخل فيها الفصل أربعة: يدخل بين المبتدأ والخبر، وبين اسم كان وخبرها. وبين اسم (إن) وخبرها، وبين مفعولي الظن. اهـ

قال السيوطي في "الإتقان في علوم القرآن": (٢ / ٣٤٠): وَلَا مَحَلَّ لِضَمِيرِ الْفَصْلِ مِنْ الْإِعْرَابِ. اهـ

(٢) قال ابن القيم في "الصلاة وأحكام تاركها": (ص: ٤٨)، إدخال ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريين قوة الإسناد واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ سورة الحج الآية وقوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ونظائر ذلك. اهـ

الالتفات

تنبيه: الفرق بين ضمير الفصل وضمير الشأن:

لا بد أن يعرف الفرق بين ضمير الفصل الذي هو للإعلان بأن ما بعده خبر لا تابع، وبين ضمير الشأن والقصة الذي لتعظيم المخبر عنه، ولزومه الإفراد.. فيفرق بينهما حتى لا يضطرب الكلام عند جعل ضمير الفصل ضمير الشأن، وعكس ذلك.

قال الزركشي في "البرهان في علوم القرآن" (٤ / ٣٠): **تَنْبِيْهُ: وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ضَمِيرِ الْفَصْلِ أَنَّ الْفَصْلَ يَكُونُ عَلَى لَفْظِ الْعَائِبِ وَالْمُتَكَلِّمِ وَالْمُخَاطَبِ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا هُوَ الْحَقُّ﴾، ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾، ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ﴾، وَلَا يَكُونُ لَهُ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ وَضَمِيرُ الشَّأْنِ لَا يَكُونُ إِلَّا غَائِبًا وَيَكُونُ مَرْفُوعَ الْمَحَلِّ وَمَنْصُوبُهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾**.**

قال في "معترك الأقران في إعجاز القرآن": (٣ / ٤٦٨)، ضمير الشأن والقصة: ويسمى ضمير المجهول، قال في المغني: خالف القياس من خمسة أوجه: أحدها: عَوْدُهُ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَزُومًا، إِذْ لَا يَجُوزُ لِلْجُمْلَةِ الْمَفْسَّرَةِ لَهُ أَنْ تَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ، وَلَا شَيْءٌ مِنْهَا. والثاني: أَنَّ مَفْسَّرَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا جُمْلَةً.

والثالث: أَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ بِتَابِعٍ فَلَا يُوَكِّدُ، وَلَا يُعْطَفُ عَلَيْهِ، وَلَا يَبْدَلُ مِنْهُ.

والرابع: أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ فِيهِ إِلَّا الْابْتِدَاءُ أَوْ نَاسَخٌ.

والخامس: أَنَّهُ مُلَازِمٌ لِلْإِفْرَادِ، وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**، **﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**، **﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾**، وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه، بأن يذكر أولاً مبهمًا ثم يُفسر. اهـ

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

١- **الالتفات من الغيبة إلى الخطاب** كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿[الفاتحة]، فحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وإِيَّاكَ﴾. (١)

٢- **الالتفات من الخطاب إلى الغيبة**، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة بقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾. (٢)

٣- **الالتفات من الغيبة إلى التكلم**، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]، فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

(١) قال الزركشي **رحمته الله** في "البرهان في علوم القرآن" (٣ / ٣٢٢): وَقَدْ تَكَرَّرَ الْإِلْتِفَاتُ فِي الْفَاتِحَةِ فَإِنَّ مِنْ أَوْهَامِهَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أَسْلُوبُ غَيْبَةٍ ثُمَّ التَّفَتَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، إِلَى أَسْلُوبِ خِطَابٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلِ [الَّذِينَ غَضِبْتَ] كَمَا قَالَ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. اهـ

فالتحدث في: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، عن غائب، و ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، كذلك، و ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، كذلك، أما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالتحدث فيه عن مخاطب وفيه أنك أثنيت على الله بكونه: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، حتى صار بعد هذا الثناء حاضر في قلبك وكأنه حاضر أمامك فقلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

(٢) لأن الضمير في: ﴿كُنْتُمْ﴾ ضمير خطاب فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾، ولو كان على نسق واحد لقال: (وجرين بكم).

٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ (١).
وللالتفات فوائد منها:

- ١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.
 - ٢- حمله على التفكير في المعنى، لأن تغيير وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.
 - ٣- دفع السامة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الملل غالباً.
- وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره أما الفوائد الخاصة فتتبع في كل صورة، حسب ما يقتضيه المقام (٢)، والله أعلم. وصلي الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. تم، والله الحمد رب العالمين.

(١) فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾، الضمير هنا ضمير تكلم، فانتقل إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، ولم يقل بضمير تكلم: فصل لنا.

(٢) قال الزركشي رحمه الله في "البرهان في علوم القرآن" (٣/ ٣١٤): الالتفات. وفيه مباحث:
الأول: في حقيقته وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرازا للسامع وتجيديداً لنشاطه وصيانةً لحاظه من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سماعه كما قيل:

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِنْ كَانَتْ مُصَرَّفَةً... إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
قَالَ حَازِمٌ فِي "مِنْهَاجِ الْبُلْغَاءِ": وَهُمْ يَسْأَمُونَ الْإِسْتِمْرَارَ عَلَى ضَمِيرٍ مُتَكَلِّمٍ أَوْ ضَمِيرٍ مُخَاطَبٍ
فَيَتَنَقَّلُونَ مِنَ الْخُطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَتَلَاعَبُ الْمُتَكَلِّمُ بِضَمِيرِهِ فَتَارَةً يَجْعَلُهُ نَاءً عَلَى

جَهَةِ الْإِخْبَارِ عَنْ نَفْسِهِ وَتَارَةً يَجْعَلُهُ كَافَا فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ مُحَاطَبًا وَتَارَةً يَجْعَلُهُ هَاءً فَيَقِيمُ نَفْسَهُ مَقَامَ الْغَائِبِ. فَلِذَلِكَ كَانَ الْكَلَامُ الْمُتَوَالِي فِيهِ ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُخَاطَبِ لَا يُسْتَطَابُ وَإِنَّمَا يَحْسُنُ الْإِنْتِقَالُ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَهُوَ نَقْلٌ مَعْنَوِيٌّ لَا لَفْظِيٌّ وَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي الْمُتَنَقِّلِ إِلَيْهِ عَائِدًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِلَى الْمُلْتَفِّ عَنْهُ لِيَخْرُجَ نَحْوُ أَكْرَمَ زَيْدًا وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ فَضَمِيرُ أَنْتَ الَّذِي هُوَ فِي أَكْرَمَ غَيْرُ الضَّمِيرِ فِي إِلَيْهِ... اهـ [راجع "البرهان" للتوسع في هذا الباب].

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ

انتهيت من التعليق على هذا الكتاب

يوم الإثنين في (١) من شهر الله المحرم، لعام (١٤٣٠هـ)

أبو عامر عبد الله بن أحمد الحكمي

أسأل الله الكريم أن يتقبله مني وأن ينفع به كما نفع بأصله،

وأن يجعله ذخراً لي يوم الدين

وأن ينفع به كاتبه ومتعلمه في الدارين

وأن يغفر لي ولوالدي ولمشاغبي ولجميع المسلمين

اللهم آمين

انتهيت من مراجعته في عصر يوم الأربعاء (١٦) شعبان (١٤٣٩هـ)

مسجد عمر بن الخطاب - قصيعة - حضر موت الساحل

الفهرس

٥	مقدمة الشيخ العلامة أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري
٧	التعريف بعلم أصول وقواعد التفسير
٧	علم أصول وقواعد التفسير:
٨	وهالك بعض كلام أهل العلم في بيان أهمية ذلك:
٩	موضوع قواعد التفسير:
٩	غايته:
١٠	بيان فضيلة علم التفسير:
١٣	مقدمة الشيخ العثيمين رحمه الله
١٧	القرآن الكريم
٢٣	(نزول القرآن)
٢٩	أول ما نزل من القرآن
٣٣	نزول القرآن ابتدائي وسببي
٤٠	فوائد معرفة أسباب النزول
٤٢	عموم اللفظ وخصوص السبب
٤٤	المكي والمدني
٤٩	فوائد معرفة المكي والمدني
٥١	الحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقا
٥٣	ترتيب القرآن
٦٢	كتابة القرآن وجمعه
٨٤	التفسير
٨٨	الواجب على المسلم في تفسير القرآن:
٩٠	المرجع في تفسير القرآن
١١٥	الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

١٢٠	ترجمة في القرآن
١٢١	حكم ترجمة القرآن:
١٢٣	المشتهرون بالتفسير من الصحابة
١٢٤	(١) علي بن أبي طالب عليه السلام :
١٢٦	(٢) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
١٢٩	(٣) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :
١٣٧	المشتهرون بالتفسير من التابعين
١٤٧	القرآن محكم ومتشابه
١٥٢	(موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه)
١٥٨	أنواع التشابه في القرآن
١٦٣	الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه
١٦٤	موهم التعارض في القرآن
١٦٨	القسم
١٧٤	القصص
١٨٤	وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:
١٨٦	تكرار القصص
١٨٨	الإسرائيليات
١٩٢	موقف العلماء من الإسرائيليات
١٩٤	الضمير
١٩٨	الإظهار في موقع الإضمار
٢٠٠	ضمير الفصل
٢٠٢	الالتفات
٢٠٧	الفهرس